



مفهوم "الإنسانية" في الثقافة العربية

[سلسلة مفاهيم عربية (1)]

1- الميزان .

إن لكل أمة من الأمم بابا من أبواب الحياة تميزت به وأبدعت فيه وفاقت غيرها، والبشر بعضهم يكمل بعضا**(0)** والأحمق هو الذي يبدأ من حيث بدأ الناس لا من حيث انتهوا !.

وهذا التميز عند كل أمة يكون منشأه موافقة هذا الباب لطبائع هذه الأمة وأمزجتها التي جبلت عليها وخصائصها الثابتة التي لا يغيرها تقلب الأحوال ولا تبدل المفاهيم والأفكار لكونها مركوزة في أعماق النفس البشرية والعرب تقول [العرق دساس]**(1)**

ومن هنا فإنك تجد هذا التميز عند كل أمة في بابها الذي عرفت به يمتد عبر تاريخها الطويل وليس بوليد اللحظة، فإذا نظرت إلى أمة الصين مثلا فإنك تجدهم قد تميزوا في مجال الصناعات من قديم الدهر: إبتداءا بـ "سد ذو القرنين" ومرورا بـ "سور الصين العظيم" وإنتهاءا بالسيطرة على "السوق العالمية" اليوم.

والمقصود أننا إذا جئنا إلى [الأبواب الإنسانية] -الثقافة والأدب- والتي تقوم على فهم النفس البشرية فهما عميقا والعمل على الإرتقاء بها إلى أعلى درجات الكمال في جميع جوانبها البشرية المختلفة فسنجد هذا الميدان هو مجال إبداع العرب الذي لا يدانيهم فيه أحد، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] فأخبر أنه فاقهم في مجالهم الذي برعوا فيه "الإنسانية" [قال كثير من العلماء بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار

وحيرت كل سحار فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ ، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله في

(0) انظر كتاب [تاريخ العلم] لجورج سارتون.

(1) أنظر في ذلك كتاب [السنن النفسية لتطور الأمم] لغوستوف لوبون ترجمة عادل زعيتر.

زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدا] تفسير إبن كثير: ٣/٦٦.

وذلك أن الإنسان لما كان مركب من (قلب) و (عقل) يفكر بأحدهما ويشعر بالآخر، وكان "الإنسان الشرقي" بطبعه مرهف الحس جياش المشاعر قوي العاطفة، وكان "الإنسان الغربي" بطبعه كبير العقل وقاد الذهن قادر على الابتكار والإبداع، وكانت أرض العرب بين المشرق والمغرب : جمع أهلها بين محاسن هذا وذاك فكانوا أكمل الناس [إنسانية] !**(2)**.

ثم إنهم -أي العرب- بعد ذلك عاشوا في صحراء خالية لا يرون فيها غير [الإنسان] والقليل معه فلا زروع ولا أنهار ولا بناء ولا صناعة فليس في أرضهم ما يلهيهم عن الإنسان وتأمله والكشف عن أسرار نفسه وخباياها والإرتقاء بها إلى أعلى درجات الكمال الإنساني **(3)**، وهذه هي حقيقة "الشعر" عندهم: أنه القدرة على الإبانة عن النفس البشرية وحسن العبارة عنها والتأثير فيها بأبلغ صورة! ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله [تعلموا العربية فإنها: تثبت العقل، وتزيد في المروءة] "المقفى الكبير"، وقال [أهل العربية جن الإنس يبصرون مالا يبصر غيرهم] "أداب الشافعي ومناقبه لإبن أبي حاتم" قال إبن رشيق [إنما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره]، فاللغة العربية بفنونها وآدابها هي اللغة الكاملة للتعبير الإنساني الفطري، فهي لغة الإنسان المتوازن القريب من الكون ومخلوقاته البعيد

عن تعقيدات المادة لذلك كانت واسعة بسعة "نفسه" و "عقله" ومن هنا فلا عجب في أن يقال أنها لغة أبو البشر آدم عليه السلام ولغة أهل الجنة.

ويذكر أن أبا نواس حضر مجلسا فيه رجل يشرح خمريته [ألا فإسقني خمرا وقلي أنها خمر .. ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر] فقال الرجل :

أراد الشاعر أن يلتذ بالخمر بحواسه جميعها لا ببعضها دون بعض : فقال (إسقني) ليلتذ بشربها، و (قلي) ليلتذ بسماع إسمها، و (جهرا) ليلتذ بالنظر إليها.

فقال أبو نواس: والله ما خطر لي شيء من ذلك حين قلته وإنما خرج مني الكلام كما هو.

أي أن هذا الرجل غاص بنظره في القصيدة إلى أعماق نفس الشاعر فكشف عن معاني وأفكار ومشاعر لا يعرفها حتى الشاعر عن نفسه!

ومن هنا كان المتنبي إذا سئل عن شيء من شعره قال [إسألوا الأعور -إبن جني- فإنه يدري ما اريد ان اقول وما لم اريد أن اقول] ثم فسر ذلك فقال [إنه يتحدث عن خواطر الناس].

والقصد أن الشعر العربي ليس مجرد تزويق للكلمات وإنما هو "علم" قائم بذاته مكتمل الأركان دونت فيه العرب معارفها وحفظت به علومها وفلسفاتها ومفاهيمها عن الإنسان والحياة **(4)** يقول الأستاذ

(2) والأعراب اليوم تقول (وين العرب) و(كنت مع العرب) يريدون بذلك "الناس"، وسبب ذلك إبصارهم لكمال إنسانية العرب وشدة تمكنهم في هذا الباب حتى ترسخ في شعورهم أن كل "إنسان" فهو "عربي" لأن العربي عندهم هو المثل الأعلى للإنسانية فرادفوا بين الكلمتين لأجل ذلك .

(3) وقد أشار إلى هذا المعنى أبو حيان التوحيدي في "المجلس السادس" من مجالس كتابه [الإمتاع والمؤانسة] الذي أفرده للحديث عن فضل العرب وعمق علومها في هذه الأبواب الإنسانية ثم ذكر لكل أمة ما تميزت به من أبواب الحياة الأخرى .

(4) ومن لطائف الشعب الموريتاني المنبئة عن كمال إنسانيته وتمام عقله وأصالة فكره أنه يعامل الشعر معاملة البرهان، فترى الرجل من عامتهم يناقش في مسألة فإذا ذكر له بيت شعر يخالف قوله رجع عنه .

العقاد ["المتنبي" يمثل العقل العربي العملي، و"المعري" يمثل العقل العربي الفلسفي، و"البحتري" يمثل العقل العربي الفني؛ وهؤلاء الثلاثة يمثلون العقل العربي

خير تمثيل]، وبذلك تفهم معنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه [كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه] "طبقات الشعراء"، ومن هنا رادف العرب بين لفظتي (الشعر) و (العلم) فقالوا "ليت شعري متى يكون كذا وكذا" أي: ليت علمي يبلغ أن أعرف متى يكون كذا وكذا .

واللغة ليست مجرد ألفاظ تخرج من طرف اللسان وإنما هي أداة الإنسان الأولى في التعبير عن "نفسه" فهي إنعكاس لـ "ثقافته" و "تصوراته" و "مشاعره" **(5)**

، ولذلك قال العلماء في قوله تعالى {وعلم آدم الأسماء كلها} أن الله أعطى آدم القدرة على الإهتداء إلى حقائق الأشياء والغوص في أسرارها ومعرفة أحوالها وما يتعلق بها من المنافع والمفاسد وحسن الإبانة عن ذلك كله، وفي دراسة خرجت في خمسينات القرن الماضي عرفت بإسم "سابر وورف - Sapir whorf" توصلت إلى أن اللغة ليست مجرد تعبير عن "أفكار" الإنسان و" مشاعره" ولكنها صانعة لها! **(6)** ، وقد انتصر لهذه الدراسة عالم اللغة الشهير قاي دويتس في كتابه "عبر زجاج اللغة/rhrough the language glass " .

(5) فاللغة للإنسان ليست مجرد أداة تواصل كما هي عند البهائيم والحشرات! ،ولكنها "هوية" و "ثقافة" ولذلك تنص جميع الدول على لغاتها القومية في إفتتاح دساتيرها، وانظر في هذا الباب الكتاب الجليل [غيرة اللغات] لأديران ن. برافي الذي لم يكتب مثله في موضوعه .

(6) قال بعضهم [إن العربية تزيد المروءة والأخلاق ، بل إن البيان يحفظ لك صحتك النفسية ويحميك من ضيق الصدر!، إلتمس هذا بالتجربة و في قوله تعالى على لسان موسى {ويضيق صدري ولا ينطلق لساني} فمحبوس اللسان حاد الطبع سريع الغضب وبادرته نارية].

وبهذا تعلم أن كل كلام قيل في فضل العرب ولغتها وأشعارها لم يرد به مجرد الألفاظ وتزويقها وإنما مرادهم القدرة على الغوص إلى أعماق النفس البشرية وحسن الإبانة عنها، وقد بلغ العرب في ذلك غاية جعلت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول متعجبا [إن من البيان لسحرا] لكشفه عن مكنونات النفوس وشدة تأثيره عليها، ولهذا المعنى قال المعري [تكلم حتى اراك] ، بل إن العرب لشدة عنايتهم بهذا الباب وإنشغالهم به وإنقطاعهم له لم تشتهر فيهم الفنون الأخرى التي كانت في باقي الأمم من رسم ونحت وما شابهه، بل إنهم -وهذا من عجائبهم!- لما ارادوا الدخول إلى هذه الفنون إبتكروا فن الخط وجعلوه فنهم الأول فكان عامة اشتغالهم في الرسم والنحت به لأن همهم الأول كان منصبا على "الكلمة" وحدها التي هي أداة الإنسان الأولى في التعبير عن نفسه فعشقهم إنما هو للكلمة وحدها وجمال الكون عندهم منحصر فيها .

ومن الإجرام الذي نراه في زماننا في حق الإنسانية: حمل قضاياها إلى قاعات المحاكم وطرقها بمطارق القضاة والحقوقيين فإن ذلك يجردها من "إنسانيتها" ويطفئ "جمالها" في القلوب لتتحول إلى مجرد (مسألة قانونية) لا علاقة لها بالنفس البشرية.

وكذلك من الجنايات على هذه الأبواب النظر إليها نظرة (دينية) محضة تلغي بشرية الإنسان وتضعه في صورة ملائكية خيالية لا وجود لها في دنيا الناس إلا بالكذب والتصنع، وهي صورة قبيحة ليست من الكمال البشري في شيء قال القاضي الجرجاني الشافعي رحمه الله [الدين بمعزل عن الشعر] "الوساطة بين المتنبي وخصومه" **(7)**.

(7) من طريف ما يذكر هنا قول الشاعر الشعبي الكبير إبن حوقان رحمه الله:-

خل "المطوع" وإنتبه للقصايد والهجوس

الله خلقنا ننظم الشعر وأبيات القصيد

فأشار إلى المنهج العربي الأصيل في الفصل بين (الميزان الشعري) -الإنساني- و (الميزان الشرعي) في تناول القضايا الإنسانية الأمر الذي لا تزال عليه الأعراب إلى يوم الناس هذا فيما عندها من قضاياها الإنسانية .

ومن الإنحرافات كذلك حمل هذه الأبواب على ألواح التشريح والنظر إليها نظرة (طبية) ووضع التقسيمات "النفسية" و "التشريحية" لها كما هو منتشر اليوم في أكثر

العالم فإن فتنة الناس في زماننا بالطب كفتنتهم قديما بالسحر حيث مزجوه بمختلف مجالات الحياة وجعلوه "التفسير العلمي" الوحيد لكل ما حولهم.

ولا شك أن "الذكاء الإجتماعي" و "الحس اللغوي" و" الحس الأدبي" شيء، و "العلوم الأخرى" شيء آخر ليست هي (الإنسانية) إذ هي محصلة من خارج النفس البشرية، أما العلوم الإنسانية فهي النفسانية واللسانية والفنية إذ هي التي تنتج من داخل النفس البشرية لترتقي بالإنسان، ولذلك قد ترى مهندسا أو طبيبا او شيخا جلف الطبع غليظ القلب لا إنسانية له بينما لا تجد شاعرا أو أديبا كذلك **(8)**.

إذ القضية الإنسانية والعقل الإنساني والتركيب النفسي للإنسان أمر مختلف تماما عن هذه "العلوم" ومن هنا قال الإمام الجويني [لا يصبر على الحساب إلا بليد] أي ضعيف الحس، لأنه من العلوم المادية المجردة التي لا اتصال لها بالنفس البشرية، بينما نجد الله تعالى قد قال {خلق الإنسان علمه البيان} فقرن بين إنسانيته وبيانه ،والعرب تقول [مفتاح الإنسان كلمة] فاللغة والأدب هي بوابة الولوج إلى النفس البشرية وما سواها مجرد نوافذ صغيرة ربما تطلعك على بعض الجوانب إلا أنها لا تكشف لك الصورة الكاملة يقول الدكتور العبقري عبدالوهاب المسيري رحمه الله ["الشعر" دائما أصدق من التاريخ ومن الصحف اليومية ومن العلوم المادية لأن (الحقيقة) أكبر من (الحقائق)]! "ندوة علي عزت بيجوفيتش" .

والمقصود أن هذه الموازين الـ "لا إنسانية" إنما تستعمل في أبوابها ولا مدخل لها في "الأبواب الإنسانية" إلا على سبيل التبعية فلا تهدر بالكلية ولا تجعل هي الأصل والميزان فيه، والناس في ذلك بين إفراط وتفريط والعاقل هو الذي يعطي كل شيء حقه إذ [الحكمة: هي وضع الشيء في مواضعه] "منازل السائرين"، وقد بين ربنا عز وجل تنوع "المناهج العلمية" فقال {قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم: (السمع) و (الأبصار) و (الأفئدة)} فجعل العلوم ثلاثة انواع لكل منها طريقه وميزانه :-

١- علوم سمعية خبرية : ومنها التاريخ والأديان.

٢- علوم نظرية تجريبية: ومنها الطب ونحوه من العلوم الطبيعية.

٣- علوم قلبية إنسانية: ومنها الشعر والأدب والفن -ومنه حديثا السينما-.

(8) ومن اللطائف في ذلك أن حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله كان لا يحتمل رؤية الدم لرقة طبعه دون جبن أو خوف ولم يضرب في حياته بالسيف قط، وكذلك الشاعر الكبير أبو العلاء المعري كان لا يأكل اللحوم لشدة رفقه بالحيوانات! .

فكل منها له منهجه الخاص في البحث والتلقي، والخلط في ذلك جهل بها وإفساد لها، وكمال الإنسانية بالأخذ بها جميعا، أما التركيز على بعضها و إهمال غيره فهو نقص في الإنسانية وجهل بالحياة وتخلف علمي! يقول الأستاذ الرافعي [إن القلوب الضعيفة هي التي تصدأ في فكرة واحدة تلح عليها حتى تتآكل صداً ثم تتفتت، ولكن القلوب القوية الصارمة ذات الصدور الجريئة الواسعة تكونها القوى المختلفة من العمل والفكر] ، قال الشاعر بدر الدريع:-

فلا تحصرن العلم بالعين انها

لتدني سرابا ماطل الخطو عازبه

فإذا فهمت ما سبق علمت أن من الحماقة أن يتكلم المرء في [الأبواب الإنسانية] دون الرجوع إلى تراث العرب المتراكم فيها عبر القرون و المبثوث في كلامها وأشعارها وأمثالها وأخبارها فيستقي منه ويصدر عنه ويبني عليه ما يعالج به مشكلات عصره فيكون قد بدأ من حيث إنتهى الناس قبله.

وتخبط الناس اليوم في هذه الأبواب وتشريقهم فيها وتغريبهم وإتيانهم بالعجائب إنما هو لفقدهم الضابط فيها وتضييعهم للميزان الذي به توزن قضاياها وتحل مشكلاتها، ولذلك فإن كلامهم فيها لا أصل له يبني عليه وإنما هي خواطر سانحة وأفكار محدثة ما تلبث غالبا إلا سنوات يسيرة ثم تستبدل بغيرها بعد أن تثبت التجربة فشلها، وهكذا وكأن الإنسان شيء جديد على هذا الكون وجزء مجهول منه لم يكتشف بعد وكأن مشاكله فيه لم تكن هي هي عبر تاريخه الطويل! ، ومن هنا فليس بعجيب أن يصل الناس إلى ما وصلوا إليه من تخبط وضياع في هذه الأبواب بسبب فقدهم للبوصله فيها.

وفي الختام فلتعلم أن أعظم ما يقيد الإنسان ويحجب عقله ويفوت عليه كل خير هو "الغرور" : الغرور بنفسه وبزمانه وأفكاره وبالمعظمين عنده وبما يراه من تطور صناعة وتقدم في بعض العلوم المادية التي أوهمته بأن إنسان اليوم ليس هو إنسان الأمس **(9)**، وأنه حين إمتلك الهواتف والسيارات والطائرات إستطاع أن يصل إلى درجة من (الرقي الإنساني) لم يُسبق إليها ولسنا ندري ما علاقة هذه "الإختراعات" بـ

(9) قال الطبيب والكاتب الفرنسي آليكيس كاريل [الإنسان المعاصر الذي أوغل في العلوم التجريبية لم يفعل شيئا لفهم نفسه .. فبقي الإنسان ذلك المجهول].

"النفس البشرية" والإرتقاء بها؟!، ولكنه الغرور داء البشرية القاتل لعقولها وإعتداد الصغار بأنفسهم وجهلهم وسوء ظنهم بآبائهم الأوائل الذين نعيش اليوم على أنقاض من بنوه من حضارات إنسانية عظيمة تغنى التاريخ بأمجادها وملأت سمعه وبصره، يقول أبو نواس:

خفف الوطأ ما أظن أديم

الأرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهد

هوان الأباء والأجداد **(10)**

والعجب أنه لو قام قائم ينادي في الناس اليوم أن يلقوا وراء ظهورهم كل ما توصلت له البشرية في "العلوم التجريبية" -كالطب مثلا- ويبدأوا هذا العلم من أوله لكان أضحوكة الدنيا ولعد الناس كلامه ضربا من الجنون .. ثم هم يفعلون ذلك في "العلوم الإنسانية"!.

(10) قال أبو إسحاق السيرافي [حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل -إبن العماد- فقصّر رجل بـ"الجاحظ" - تنقص من قدره- وأزرى عليه، وحلم الأستاذ عنه، فلما خرج قلت له: سكتّ أيها الأستاذ عن هذا الجاهل في قوله مع عادتك بالرد على أمثاله؟ فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله ولو واقفته وبينت له النظر في كتبه -كتب الجاحظ- صار إنسانا ولم استصلحه لذلك! يا أبا القاسم كتب الجاحظ تعلم "العقل" أولا و "الأدب" ثانيا] "معجم الأدباء لياقوت".

2- الإنسان والدين.

خلق الله السماوات والأرض وجعل سكان السماء هم "الملائكة" وعلى الأرض "البشر" وتحتها "الشياطين"، ولكل واحد من هؤلاء الأصناف الثلاثة خِلقته التي تميزه والتي هي مراد الرب فيه، ومحاولة تغيير الفطرة لأي صنف من هذه الأصناف الثلاثة فضلا عن كونها مجرد مغالطة ذهنية لا تَحقق لها في الواقع إذ {لا تبديل لخلق الله} إلا أنها كذلك فكرة إبليسية -وإن ظهرت بمظهر تديّني!- فقد قال إبليس متوعدا بني آدم {لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام و"لآمرنهم فليغيرن خلق الله" ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا}.

ومنشأ الخلل عند الناس في هذا الباب هو: الجهل بقدر [الإنسان] الذي قال الله فيه {ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} فبين أن خِلقة الإنسان هي الأحسن وفطرته هي الأكمل.

وذلك أن الملائكة مخلوقات "عقلانية" محضة ليس لها رغبات واختيارات شخصية {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} وهذا نقص في كمال الحياة !، والشياطين مخلوقات "شهوانية" لا حكمة لها ولا نبل وهذا أيضا نقص.

أما الإنسان فقد جمع بين الأمرين فله "قلب" و "عقل" يفكر بأحدهما ويشعر بالآخر، وأعلى درجات الكمال الإنساني هو أن يأتي بكل واحد منهما تاماً فلا يُغلّب جانب دون الآخر بأن يطفئ بعقله شهوته فيكون مسخا، أو يدعها تحجب عقله فيصير شيطانا ولذلك قال أبو فراس الحمداني مادحا نفسه:-

وأجري فلا أعطي الهوى فضل مقودي

وأهفو ولا يخفى علي صواب

فكل تغليب لأحد الأمرين على الآخر هو في حقيقته تجريد للإنسان من إنسانيته وتشويه لفطرته ومسخٍ له إلى "نِسنَاس" والعرب تأنف من ذلك وتنفر منه وليس ذلك عندهم من الكمال البشري في شيء، وإنما ادخل هذا التصور الفاسد لـ [التدين] على العرب من دخل في دينهم من أبناء الأمم الأخرى **(11)**، فغلب حتى صار أكثر الناس لا يعرفون غيره إلا بقايا الأعراب الذين لا زالوا على فطرتهم الأولى.

(11) وفي الحديث [إياكم ورطانة العجم]! ، وكان الإمام أبو جعفر محمد الباقر يقول [أعوذ بالله من: الشيطان، والسلطان، وشر النبطي إذا إستعرب، وشر العربي إذا إستنبط] فقيل: وكيف يستنبط العربي؟ قال [إذا أخذ بأخذهم وزيهم] "المصنف لإبن أبي شيبة".

إن وضع الإنسان في صورة [ملائكية] إنما هي فكرة "فلسفية هندية وثنية" لا تزال عند أهل المشرق إلى يوم الناس هذا و تتنوع صورها فيهم -ومن أشهرها في زماننا" اليوغا"- وهي جرم في حق الإنسان والإنسانية مهما زوقها أصحابها وقلبوا لك الأمور.

أما [شيطنة] الإنسان ورغباته وشهواته فهي فكرة "خارجية" بإمتياز! قال المبرد في "الكامل" [يروى من غير وجه أن إبن الأزرق -أحد رؤوس الخوارج- أتى إبن عباس رضي الله عنه يوما فجعل يسأله حتى أمله فجعل إبن عباس يظهر الضجر، وطلع عمر بن أبي ربيعة على إبن عباس وهو يومئذ غلام فسلم وجلس، فقال له إبن عباس: ألا تنشدنا شيئا من شعرك؟ فأنشده:-

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

غداة غدٍ أم رائح فمهجر

حتى أتمها وهي ثمانون بيتا، فقال له إبن الأزرق: لله أنت يا إبن عباس أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتُعرض ويأتيك غلام من قريش فينشدك "سفهاً" فتسمعه؟!، فقال إبن عباس: تالله ما سمعت سفها!!] فكان الخوارج أول من سفه الرغبات الإنسانية في الإسلام.

وإبن عباس رضي الله عنه هو القائل [(ذهب الناس وبقي النسناس) قيل: وما النسناس؟ قال: (الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس)] قال القزويني [إنهم أمة من الآمم -نوع من الحيوانات- لكل واحد منهم نصف بدن ونصف رأس ويد ورجل واحدة كأنه إنسان شق نصفين، يقفز على رجل واحدة قفزا شديدا ويعدو عدوا شديدا منكرا] وقال الميداني في "الأمثال" [إن الناس كانوا يأكلون النسناس، وهو قوم لكل واحد يد ورجل ونصف رأس ونصف بدن وليس لهم عقول، والعرب يصطادونهم ويأكلونهم، وهم يتكلمون بالعربية ويتناسلون ويتسمون بأسماء العرب ويقولون الأشعار]، ومن طريف أخبارهم ما رواه الدينوري في "المجالسه" عن إبن إسحاق قال [النسناس خلق باليمن لأحدهم عين ويد ورجل يقفز بها وأهل اليمن يصطادونهم، فخرج قوم لصيدهم فرأوا ثلاثة نفر منهم فأدركوا واحدا فعقروه وتوارى إثنان في الشجر، فذبحوا الذي عقر فقال احدهم لصاحبه -الصيادون- : إنه لسمين! ، فقال أحد الإثنين -النسانيس- : إنه كان يأكل الضرو، -فسمعوه- فأخذوه فذبحوه فقال الذي ذبحه: ما أنفع الصمت، فقال -النسناس- الثالث: فأنا الصميت -اي

الساكت بخلاف صاحبيه-، فأخذوه فذبحوه] ولهم أخبار عجيبة، والعرب تضرب بهم المثل على (ضعف الإنسانية) .

والمقصود أن الإنسان ليس "ملاكا" كما يريد الخرافيين، وليس "شيطانا" كما يصوره الخوارج والماديين، وإنما هو [إنسان] كما خلقه رب العالمين.

فكل انحراف يقع في هذا الباب مهما اختلفت صوره لا يخرج عن أحد الإنحرافين في الإنسانية:

1- الخرافيين الذين يغالون في "التدين" حتى يضيعوا إنسانية الانسان.

2- الماديين الذين يغالون في "ماديتهم" حتى يضيعوا إنسانية الإنسان.

وكلاهما يرتكب الجرم نفسه في حق الإنسانية وإن تضادت الصورة بينهما في الظاهر فهما كوجهي العملة المعدنية!، وفي ذلك أقول في قصيدة مدحت بها أحد الأصدقاء:-

فاق الأنام بعقل ظن جاهله

به الجنون، وهذا الداء أعياني

داء الجهالة داء الناس اجمعها

من كل "شيخ" تراه او كل "علماني"

والذي نقوله أن الدين جزء من الحياة وليس هو الحياة كلها، وتضخيم هذا الجزء وإخراجه عن حده حتى يطغى على باقي الأجزاء -المادية و الإنسانية- فيضعفها أو يلغيها جهل بالحياة وسننها وبالإنسان وطبيعته بل وبالدين نفسه، وكذلك تحجيم هذا الجزء وتهميشه جهل بالإنسان وإحتياجاته وبالحياة وضروراتها وبالتدين وعمق تغلغله في طبيعة النفس البشرية.

فـ"الدين" لا يلغي "إنسانية" الإنسان .. و"الإنسانية" لا تقوم مقام "الدين"، بل الإنسان مركب من كلا الأمرين فلا غنى له عن أحدهما **(12)**.

(12) ومن أجمل الأشياء في هذا الباب رواية [طعام صلاة حب] لـ إيلزابيث جلبريت، وهذه الرواية على عكس كثير من الروايات اسلوبها بسيط إلا أن فلفستها عميقة، وفكرتها أن الإنسان عبارة عن: "قلب"، و "روح"، و "جسد" وسر السعادة ان يملأ الإنسان هذه الثلاث جوانب من نفسه وبذلك يكون (مكتمل الإنسانية).

ومن هنا فليس من مقصود الشريعة عدم وجود المخالفة لها من الناس مطلقا كما يتوهم أكثر الناس، وإنما تُعنى الشريعة بضبط النظام العام وجعل سمة الصلاح والخيرية فيه هي الظاهرة مع بقاء إنسانية الفرد في نفسه ورغباته وإحتياجاته البشرية ولذلك جاء في الحديث [والذي نفسي بيده لو لم تذنبو لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم !] رواه مسلم.

ولما إختلت هذه النظرة الإنسانية لـ"التدين" عند الصحابي حنظلة بن الربيع صوبها له رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال رضي الله عنه [إنطلقت أنا وأبو بكر الصديق حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله! فقال عليه الصلاة والسلام (وما ذاك؟) فقلت: يا رسول الله نكون عندك فتذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيرا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة -ثلاث مرات-)] رواه مسلم، فبين له عليه الصلاة والسلام أن هذا المفهوم الخاطئ في فهم "التدين" يخرجكم عن كونكم بشرا ويجعلكم في مصاف الملائكة وليس ذلك مرادا لله فيكم وإلا لخلقكم ملائكة! ،وإنما مراده أن يكون الدين جزء من حياتكم لا أن يكون هو حياتكم كلها وفي الحديث [أنتم أعلم بأمور دنياكم] **(13)**، والفرق بين "النصوص الشرعية" وبين "مراد الله" من الناس فيها كالفرق بين التنظير والتطبيق في جميع أبواب الحياة الأخرى، فلا تؤخذ بمثاليتها الخيالية وإنما توضع في سياقها الإنساني الصحيح وتُحمل عليه، ومن هنا جاء كلام أهل العلم عن (الموانع) الإنسانية لإعمال "الأحكام الشرعية" من الغضب والجهل والخوف والمرض وغيرها.

(13) وهنا قضية أخرى خطيرة لا بد من بيانها: وهي أنه ليس من مهمات "الدين" جعل الحياة مثالية وحل جميع مشكلاتها والإرتقاء بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال إذ تلك هي وظيفة الإنسان نفسه حين إستخلفه الله في الأرض وكلفه بعمارتها وإستصلاحها إمتحانا له، والذي يفعله "الشرع" حين يتدخل في بعض ذلك إنما هو: بيان الحد الأدنى الذي لا ينبغي للإنسان بحال من الأحوال أن ينزل عنه، فلا يفهم من ذلك أنه ليس مأمورا بالإرتقاء إلى ما هو أعلى من ذلك وأكمل، والعمل على بلوغ أعلى الدرجات الممكنة في قيامه بوظيفته على هذه الأرض.

فإذا فهمنا ذلك ظهر لنا أن كثيرا من "النقد" الموجه للشرائع إنما حمل الناس عليه جهلهم بالمقصد الذي جاءت هذه الشرائع من أجله ووظيفتها التي تؤديها والجوانب التي هي مسؤولة عن تغطيتها، فالخلل إذن في فهم الناس لا في نفس الشرع،

والنقص في قيامهم هم بدورهم لا في كلام الله ورسله، والجهل منهم حين ظنوا أن قيامهم ببعض دورهم الإنساني يُفهم منه أنهم أتوا بما عجز الدين عنه لا ما هو موكول إليهم ولا شأن للدين به؛ وهذه مسألة عظيمة من تأملها عرف قدرها!.

وفي الحديث [فتر الوحي فترة حتى "حزن" النبي صلى الله عليه وسلم حزنا غدى منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي فيه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقا!، فيكسن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، حتى إذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك] رواه البخاري، وهذا الحديث من أحب الأحاديث إلى قلبي لما فيه من بيان كمال إنسانيته عليه الصلاة والسلام {قل إنما أنا بشر مثلكم}، وقد دعا النبي عليه الصلاة والسلام لـ "الدوسي" الذي إنتحر من ألم مرض المدينة مراعاة لحاله الإنساني كما جاء في صحيح مسلم.

فتكلف التنسك والمبالغة فيه حتى يَخرج عن حد الانسانية، وتحقير شأن الإنسان بحجة الذنوب والمخالفات، وشيطنه رغباته البشرية، وممارسة جلد الذات والوسواس القهري في محاسبة النفس؛ كل بدعة محدثة في الدين أحدثها العجم وليست من طريقة العرب في التدين ولم يعرفها أصحاب رسول الله ولا كبار التابعين ومن قرأ في كتب التراجم والسير رأى الفرق بين بساطة تدينهم وتكلف من بعدهم ومبالغتهم حتى خرجوا عن حد الإنسانية في فهمهم للتدين وعملهم به، وقد لمس من طال عمره من الصحابة رضوان الله عليهم هذا التغير الذي أحدثه الناس في مفهوم التدين وتكلفهم في ذلك نسك أعجمي فقال إبن مسعود رضي الله عنه [أنتم أكثر صلاة وصياما وأكثر إجتهادا من أصحاب محمد وهم كانوا خيرا منكم!] "شعب الإيمان للبيهقي" وقال [من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقه علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا] "جامع بيان العلم وفضله" .

وعن أبي سلمة بن عبدالرحمان قال [لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزقين ولا متاوتين وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ويذكرون أمر جاهليتهم] "الأدب المفرد للبخاري"، وعند إبن حبان [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس وكانوا يجلسون فيتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم صلى الله عليه وسلم] وكان أحدهم ربما اضطجع على ظهره في المسجد من شدة الضحك، وحين قيل لسعيد بن المسيب: هاهنا قوم نساك يعيبون إنشاد الشعر؟ قال: «نسكوا نسكا أعجميا»! .
ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا من التابعين يتخشع في المسجد ضربه بالدرة وقال [قتلتنا قتلك الله]!، وفي المصنف لإبن أبي شيبة عن إبن عباس رضي الله عنه قال [ربما قال لي عمر بن الخطاب: (تعال أباقيك تحت الماء أينا أطول نَفَسا)، ونحن محرمون]! ؛ فهذا كان مفهوم الصحابة لـ "التدين".

وفي "أخبار الظراف" لإبن الجوزي عن الإمام سفيان بن عيينة قال [أتينا مسعر بن كدام -أحد أئمة تابعي التابعين- فوجدناه يصلي، فأطال الصلاة ثم إلتفت إلينا مبتسما فأنشد:-
ألا تلك عزة قد أقبلت
وترفع نحوي طرفا غضيضا
تقول: مرضنا فما عدتنا؟
وكيف يعود مريضٌ مريضاً !
فقلت: رحمك الله بعد هذه الصلاة هذا؟ قال: نعم! مرة هكذا ومرة هكذا]، وذلك أن الغزل مركوز في الفطرة، وإنكار هذا جملة وأن نقول هذا لا ينبغي أن يتحدث به إلا عند الزوجة وقصره هذا القصر يؤدي إلى كبت عند الناس ويحدث بعد ذلك إنفجارا بطريقة ما، إلا في حالات نادرة بأن يميت الإنسان نفسه فلا يصير إنسانا ولا يشعر بشيء وهذا موات أكثر من أي موات، فتغليب "التدين" على هذه الجوانب الإنسانية حتى يميتها: جريمة في حق الإنسان، وظلم للدين نفسه وجهل به.
إذ العشق وحب الجمال والتغزل به حاجة إنسانية لا يكون الإنسان "إنسانا" الا بها، ومن هنا كان من كمال الإمام الشافعي الذي فضل به كثيرا من علماء زمانه ما رواه مصعب بن عبد الله الزبيري قال:قرأ علي الشافعي رضيَ الله عنه أشعار هذيل حفظاً ثم قال (لا تخبر بهذا أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا)، وذلك أن من لم يعشق بنفسه لا بد له من مصاحبة العشاق او النظر في أخبارهم وسماع أشعارهم وتأمل أحوالهم حتى يكمل بذلك نفسه ولذلك قيل [الشعر يرقق الطبع، ويعلم المروءة]، والإنسان بلا عشق ولا غزل يكون ناقص الإنسانية جلف الطبع غليظ القلب يمنعه قبح نفسه من إبصار الجمال في كل شيء والعرب تقول:-
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فخذ عَلَفاً تِبنَاً فأنت حمار!

ولما كان "الأنبياء" أكمل الخلق إنسانية وأجملهم أرواحا كانوا أقدر الناس على إبصار الجمال والميل إليه! ، فهذا أبو البشر آدم عليه السلام بعدما رآى كآبة أمنا حواء وحزنها على مقتل إبنها قال يتغزل فيها :-
تغيرت البلاد ومن عليها
ولون الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم
وقل بشاشة الوجه المليح
فكان ذلك أول شعر قالته البشرية! **(14)** ،وقال الزهري [أول حب كان في الإسلام هو حب النبي لعائشة]، وكان مسروق يسميها (حبيبة رسول الله) ولما سئلت أم سلمة هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يُقبّلُ وهو صائم؟ قالت: [إن النبي كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها]!.

(١٤) فائدة: "الحزن" و "الحب" هما أقوى المشاعر الإنسانية ولذلك كانا النقطة التي إنطلق منها الشعر في التاريخ الإنساني -شعر آدم عليه السلام- ، وإذا نظرت في التراث العربي في الشعر فستجد أجوده وأجمله ما كان في بابي [الرثاء] أو

[الغزل] .

وقد عشق عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش رضي الله عنها حين نظر إليها من أول مرة ورأى حسنها فقال [سبحان مقلب القلوب!] وكانت عند زيد بن حارثة فلما طلقها زيد زوجه الله إياها من فوق سبع سماوات فأنزل عليه {وتخفي في نفسك مالا تبديه وتخشى الناس} ثم قال {فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها}**(15)**، فقام رسول الله فدخل عليها من فوره من شدة الفرح!، حتى قالت أم المؤمنين عائشة من غيرتها عليه [ما أرى ربك إلا يسارع في هواك].
وقد سخر الله "البراق" لإبراهيم عليه السلام تحمله من الشام إلى مكة في كل شهر مرة ليزور زوجته هاجر وذلك لشغفه بها وقله صبره عنها كما في "اعتلال القلوب".
فإنظر إلى فرح الرب بموافقة عبده لمراده حين خلقه إنسانا وأراده أن يكون كذلك: فزوج نبينا من فوق سبع سماوات بالمرأة التي أحب، وسخر البراق لإبراهيم؛ لأنهما عليهما السلام إستكملا إنسانيتهما على أكمل وجه قال إبن القيم [أما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله] "الداء والدواء:552"، وقد مدح الله إبراهيم فقال {وإبراهيم الذي وفى} أي كمل من كل جانب وقد جاء في الأثر [أن إبراهيم عليه السلام كان أول من فرق شعره وحف شاربه – بمصطلح اليوم الموضه!- واستنجى بالماء وإختتن ونتف إبطيه -نظافة شخصية!- فقال الله فيه {وإذ إبتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك "للناس" إماما}] فهو امام "الرقي الإنساني".

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي: إن إبنك عشق فلانة! فقال [الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي **(16)**] "الداء والدواء: 508"، وقديما قيل [من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي فهو فاسد المزاج محتاج إلى علاج] حتى يكمل إنسانيته إذ [العشق: يشجع الجبان، ويصغي ذهن الغبي، ويسخي كف البخير، ويذل عز الملوك، ويسكن نوافر الأخلاق، وهو أنيس من لا أميسه له، وجليس من لا جليس له، والعشق يزيل الأثقال ويلطف الروح، ويصفي كدر القلب ويوجب الإرتياح لأفعال الكرام كما قال القائل :-
ويهتز للمعروف في طلب العلى
لتحمد يوما عند ليلى شمائله
فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق] "الداء والدواء:509" .

(١٥) وقد كانت رضي الله عنها تفتخر بذلك على النساء فتقول [انتن زوجنكن أهليكن وأنا زوجني الله من فوق سبع سماوات].

(١٦) ومن عجائب العرب وعمق فهمهم لحقيقة "الإنسانية" أنهم يسمون الحمام (إنس الطير)! ، قال الإمام الشافعي في كتابه الأم [الحمام عندهم أشرف الطائر وأجمعه للهداية وسرعة الألفة، وأصواته لها عندهم فضل لإستحسانهم هديرها، فكانوا يستمتعون بها لأصواتها وإلفها وهدايتها وفراخها، وقد كان من العرب من

يقول (الحمام أناسي الطائر) أي يعقل عقل الناس وقد ذكرت العرب الحمام في أشعارها]، والحمام في الثقافة العربية يعد رمز الألفة والحب والوفاء ويزعمون أن الحمامة لا تنسى صاحبها ولو بعد عشر سنين، فلما إتصفت الحمامة بهذه "الصفات الإنسانية" جعل لها العرب نصيبا من ذلك فعدوها (إنس الطير)!.

ومن هنا كان أصح الأقوال في تفسير قوله تعالى في خبر سيدنا يوسف عليه السلام مع زليخة {ولقد همت به وهم بها} هو ما قاله إبن عباس رضي الله عنه وجمهور السلف الذين كانوا على الفطرة الأولى فطرة العرب خلافا لمن جاء بعدهم: [أنه عشقها وعشقته فلما إستلقت له على ظهرها جلس بين رجليها وحل سراويله] !.
وهذا القول هو الأقرب لإنسانيته عليه السلام ولكمال رجولته، والأعراب إلى يوم الناس هذا يعدون الذي تتعرض له الحسناء وهو يحبها وتحبه ثم لا يحرك فيه ذلك ساكنا انه ناقص الرجوله ميت القلب ثقيل الروح بليد الذهن (١٧) ،قال إيليا ابو ماضي :
إذا أنت أبصرت الجمال ولم تهم
كنت إمرأ خشن الطباع بليدا
وحاشى سيدنا يوسف عليه السلام وسائر الأنبياء من هذه النقيصة التي لا يرتضيها أحدنا لنفسه، ثم ما هي الفضيلة في كفه عنها إذا لم يكن به كلف بها؟!، قال الشاعر:
أخلو به فأعف عنه تكرما
خوف الديانة لست من عشاقه
كالماء في يد صائم يلتذه
ظمأ فيصبر عن لذيذ مذاقه
وبذلك يظهر أن قول إبن عباس رضي الله عنه هو الأقرب للفطرة والأصح في العقل والنقل .
والله عز وجل إنما اخبر عن يوسف بذلك على سبيل المدح وبيان كمال رجولته وإنسانيته وجمال روحه وكمال حياتها حين عشق زليخة وعشقته فإن [النفس الحسنة تولع بكل حسن] "طوق الحمامة" ، وقد كانت زليخة امرأة شريفة عاقلة غاية في الحسن والخلق وإنما حملها على فعل ما فعلت حبها ليوسف وعلمها بمكانها منه وبما يكنه في قلبه من حب لها وكلف بها جعله يتزوجها بعد موت زوجها رغم انها تسببت في سجنه بضع سنين !.

والمقصود أن [العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان: إن تركته ضرك، وإن أكثرت منه قتلك] "البصائر والذخائر"، فلا غنى لإنسان عنه سواءا بأن يعشق بنفسه أو بأن ينظر في أحوال العاشقين وأخبارهم فيعتبر بها ويهذّب نفسه ويكمل بذلك إنسانيته، ولذلك قال الأديب إسحاق إبن إبراهيم الموصلي [أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة، نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يحيي موات القلوب ويزيد في العقول، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا] "الداء والدواء".

(١٧) انظر في ذلك المقالة الرائقة الفائقة التي كتبها الأستاذ الرافعي بعنوان [سمو الحب] ضمن كتابه البديع "وحي القلم:1/147".

ومن الطرائف في هذا الباب أن الشاعر جامع بن مرخية قال مرة :
سألت سعيد بن المُسيِّبِ مفتي الـ
مدينة: هل في حب "دهماء" من وزر؟
فقال سعيد بن المُسيِّبِ: إنما
تُلامُ على ما تستطيع من الأمر
فبلغ ذلك الإمام سعيد بن المُسيِّبِ فقال [كذب والله ما سألني ولا أفتيته بما قال، ولو سألني ما كنت أجيبه إلا به].
وقد عشق عبيدالله بن عبدالله بن مسعود -أحد فقهاء الإسلام السبعة- حتى إشتهر عشقه كما في "مصارع العشاق:1/321" فلما كثر عليه اللوم هجر محبوبته ثم إنه ندم على ذلك فقال :
كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم
ولامك أقوام ولومهمُ ظلم
فنم عليك الكاشحون وقبلهم
عليك الهوى قد نم لم ينفع الكتم
فأصبحت كالنهدي إذ مات حسرة
على إثر هند، أو كمن مسه السُقم
تجنبت إتيان الحبيب تأثما
ألا إن هجران الحبيب هو الإثم!
فذق هجرها قد كنت تزعم أنه
رشادا ألا يا ربما كذب الزعم

ومن طرائفه رحمه الله أنه [قال في امرأة من هذيل قدمت المدينة ففتن بها الناس ورغبوا فيها خاطبين:

أحبك حباً لو علمت ببعضه

لجدت ولم يصعب عليك شديد

وحبك يا أم الوليد مولهي

شهيدي "أبو بكر" فنعم شهيد
ويعلم وجدي "قاسم بن محمد"

و "عروة" ما أخفي بكم و"سعيد"
ويعلم ما ألقى "سليمان" علمه

و"خارجة" يبدي بنا ويعيد
متى تسألي عما أقول تخبري

فلله عندي طارف وتليد
هؤلاء الستة الذين ذكرهم: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير بن العوام، وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعبيد الله صاحب هذا الشعر هو سابعهم، وهم فقهاء المدينة وأصحاب الرأي الذين هم عليهم المدار] "العمدة لإبن رشيق".

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أنه وقع له يوم جلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضه قال عبدالله: [فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون]!(١٨) ، وقال الخرائطي في "إعتلال القلوب" أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر بجارية وهي تقول :-

وهويته من قبل قطع تمائمي

متمايسا مثل القضيب الناعمِ

فسألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، قال: من هواك؟ فتلكأت، فأقسم عليها! فقالت:-

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها

قُتلت بحب محمد بن القاسمِ

فإشتراها أبو بكر من سيدها وأرسلها للرجل الذي عشقته.

[وأُتي علي بن أبي طالب بغلام من العرب وُجد في دار قوم بالليل، فقال له: ما قصتك؟ قال: لست بسارق ولكني أَصدُقك:-

تعلّقت في دار الرياحين خودة

يذل لها من حسن منظرها البدر

لها في بنات الروم حسن ومنظر

إذا إفتخرت بالحسن صدقها الفخر

فلما طرقت الدار من حَر مهجة

أتيت وفيها من توقدها الجمر

(١٨) وانظر المقالة الرائعة التي إفتتح بها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي كتابه [وحي القلم] والتي بعنوان(اليمامتان).

تبادر أهل الدار لي ثم صيّحوا

هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع علي شعره رق له فقال للمهلب بن رياح -صاحب الدار-: إسمح له بها، فقال: يا أمير المؤمنين سله من هو؟، فقال: النهاس بن عتيبة، فقال: خذها فهي لك].

وفي "في روضة المحبين" [أن زبيدة بنت جعفر زوجه هارون الرشيد قرأت في طريق مكة على حائط :-

أما في عباد الله أو في إمائه

كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل

له مقلة أما المآقي قريحة

وأما الحشا فالنار منه على رَجْلِ

فنذرت أن تحتال لقائلهما إذا عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه، فبينما هي بالمزدلفة إذ سمعت من ينشد البيتين فطلبته فزعم أنه قالهما في إبنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه، وإذا المرأة أعشق منه لها، فشفعت له عندهم فزوجوه فكانت تعده من أعظم حسناتها وتقول: ما أنا بشيء أسر مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة]، وفي "المستجاد من فعل الأجواد" للتنوخي قصة جميلة لعبد الله بن معمر القيسي تشبه هذه.

وفي "الموشى" عن الأصمعي قال [رأيت أبا السائب المخزومي متعلق بأستار الكعبة وهو يقول (اللهم ارحم العاشقين وإعطف عليهم قلوب المعشوقين بالرأفة والرحمة يا أرحم الراحمين)، فقلت: يا أبا السائب أفي هذا المقام تقول هذا المقال؟، فقال: إليك عني! الدعاء لهم أفضل من حجة بعمرة، ثم انشأ يقول:

يا هجر كف عن الهوى، ودع الـ

ـهوى للعاشقين يطيب يا هجر

ماذا تريد من الذين جفونهم

قرحى، وحشو صدورهم جمر

وسوابق العبرات فوق خدودهم

هُطلا، تلوح كأنها القطر

صرعى على جسر الهوى لشقائهم

بنفوسهم يتلاعب الدهر].

طرفة: يتناقل الأعراب خبر شاعر اسمه بصري الوضيحي الشمري، كان من أحسن الرجال وجها، وارقهم طبعا، فكان عظيم الكلف بالحسن وأهله، كثير التغزل بالنساء.

وكان من خبره انه لما كبر سنه أخذه أبنه للحج فلما فرغ من الطواف وأقبل إلى الحجر الأسود ليقبله عرضت له فتاة شديدة الحسن بينه وبين الحجر تريد تقبيله، فلما رأى نور خدها لم يتمالك أن قبلها، فقالت «حُجّ يا شايب»!

فقال «يا بعد حيي، زلقت الحبّة -القُبلة-، أبيها بالحجر وصارت فيك»، فقال ابنه معتذرا «تاه العود تاه العود، هذا شايب تايه مهذري -خرف-».

فقـال بصري: «التايه اللي حججني وهو يعرف أن غبار السنين ما محا خضـار قلبي».

فلما فرغ من حجه ورجع إلى قومه سألوه عن الحج فأنشد:

ياليتـنـا مـن حجـنـا.. سالميـنـا

كان الذنوب اللي علينا خفيفـات

رحنـا نبـي نخفف ذنــوبٍ عليـنـا

وجينا علينا كثرها عشر مرات

فأرسلها مثلا (يا ليتنا من حجنا سالمينا).

والمقصود أن الإنسان كلما كان إلى "إنسانيته" أقرب: في كمالها ونقصها، وجهلها وعلمها، وقوتها وضعفها، وصوابها وخطئها؛ كان إلى الله أحب ومنه أقرب لموافقته مراده جل وعلا في خلقته للإنسان على هذه الخلقة وتركيبه إياه هذا التركيب الذي أثنى به عليه وفضله به على العالمين فقال {ولقد خلقنا الانسان في احسن تقويم}.

وكلما أخل الإنسان بشيء من ذلك: إفراطا "ملائكيا"، او تفريطا "شيطانيا"؛ كان عن "الإنسانية" أبعد وفي عين الله اقبح لمخالفته مراده منه حيث قال {ولو نشاء

لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون} وكان بذلك لمراد إبليس أقرب حين قال {ولآمرنهم فليغيرن خلق الله}! .

وقد جاء في حديث لقيط بن عامر رضي الله عنه بيان فرح الرب بموافقة الإنسان " لإنسانيته" في قوله عليه الصلاة والسلام [(يشرف عليكم ربكم فيراكم "أزلين" "مشفقين" فيضل يضحك علم أن غوثكم قريب) قال لقيط: يا رسول الله لن نعدم من رب يضحك خيرا]، وما أحسن قول الشاعر بدر الدريع:-

أُحابي ما بوسعي منه دلاً

وهل خُلقٌ بذي دلٍ يُحابا

يقول: ألست ممن قال زهدا

"أبرُ الناس من عق الكِعابا"؟!

وما هو مَن يريد النصح لكن

تحرى الحق باطله دِعابا

فقلت له: معاذ الله! مهلا

حذار من الفهيمِ إذا تغابى

بلى .. قد ثاب زهادٌ برشدٍ

ولكن لا كمن بالحسن ثاب!

وإني للذي "فَقِهَتْ" أناس

و "رقَّ" فكان أوسعهم جنابا

[فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالته ومعاداته: فإذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكلما كان الشيء إلى الرب أحب كان أحب إليه وآثر عنده وكلما كان أبغض إلى الرب كان أبغض إليه وأبعد عنه علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك، فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك فإن "الولاية" عبارة عن موافقة العلي الحميد في محابه ومساخطه وليست بكثرة صوم ولا صلاة] "الداء والدواء"، فهذا هو المفهوم الحقيقي لـ (التدين) البشري الذي يعرفه العرب لا الملائكية الكاذبة الذي يتخيلها العجم ولذلك جاء في خبر فاجر بني إسرائيل وعابدهم أن الله أدخل الفاجر الجنة لأنه كان أقرب إلى "إنسانيته" وعذب العابد الذي أخرج نفسه عنها وتألى على الله! والقصة عند أحمد وأبي داود .

3- الإنسان والكون.

لقد عاش الإنسان في هذا الكون منذ دهور بعيدة ولا زالت آثاره فيه ضاربة بأطنابها في عمق التاريخ شاهدة عليه، وقد كان الإنسان منذ أول يوم له على هذه الأرض يعلم أن هذا الكون أكبر بكثير من المحسوسات التي تحيط به وأن له شِقاً روحيا لا يقل عظمة وإتساعا عن شقه المادي، فعاش الإنسان قرونا طوالا وهو ينظر إلى الكون بكلتا عينيه -المادية والروحية- نظرة البصير، لا نظرة "الماديين" ولا "الخرافيين" أصحاب [العور العقلي] الذين يبصرون الكون بإحدى العينين دون الأخرى.
ومن هنا فإن تراث الإنسانية عبر تاريخها الطويل كان على شقين "ثقافي" و "حضاري" : فالثقافة -الدين والأخلاق والفن- تمثل جانب الإنسان الروحي، والحضارة -البناء والصناعة- تمثل جزءه المادي؛ وكلما كان المرء أشد تحقيقا للأمرين كان أعظم [إنسانية] !.

ولما كانت نظرة الإنسان للوجود هي ظل تصوراته للغيب كما قال الأستاذ الرافعي [إن الكلمة في الذهن لَتوجِد الحادثة في الدنيا] "وحي القلم: ١/٢١٧" ، كان الحديث عن المسائل الروحية ليس ترفا فكريا وإنما هو ضرورة في تكوين الوعي البشري وبناء الأذهان والنفوس التي بها يفهم الإنسان الحياة من حوله ويؤثر فيها، فغياب هذه الحقائق "الغير مادية" ينتج إختلالا في وعيه وإضطرابا في نفسه وإنحرافا في فهمه للكون من حوله بل وفي فهمه لنفسه ولـ"إنسانيتها" قبل ذلك! .
ومن هنا نرى أن خطأ الماديين في تصورهم لقصة الخلق ونشأة الإنسان له أثر على تصورهم لمفهوم [الإنسانية] فإن جميع إنحرافاتهم في هذا الباب راجعة إلى فكرة "الإنسان الطبيعي" -المادي- اي الانسان الذي ليس له أصول ربانية -جسد بلا روح- هذه المقولة الجاهلة التي ظنوها "قفزة علمية" سقطوا بها قريبا من (الخرافة) بعيدا من (العلم والإنسانية) ! ، وهو الأمر الذي يكذّبه إحساس الإنسان بنفسه قبل كل شيء، وليس لهم فيه إلا الأوهام والظنون والإفتراضات التي تصاغ بلغة العلم فيظنها الجاهل علما وقد روى إبن العماد في "شذرات الذهب" عن أبي إسحاق الصابئ وهو يؤلف كتابه "التاجي" [أن صديقا له دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض، فسأله عما يعمل؟ فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها]!.

والمقصود أن الأصل الذي بنيت عليه جميع المنظومات المادية هو الإجابة على سؤال واحد: ما هو الإنسان؟
قال الدكتور عبدالوهاب المسيري [فإذا قلنا أن الإنسان مجرد "مادة" فهي الفلسفة

المادية حينئذ وينتج عن هذه النظرة للإنسان والكون منظومات أخلاقية وفنية وسياسية وإقتصادية وطبية وغير ذلك، أما إذا قلنا أن الإنسان مكون من شقين "المادة" و "الروح" فهي الفلسفة الإنسانية وينتج عنها منظومات مختلفة في الأخلاق والجمال والسياسة والإقتصاد ...إلخ] (محاضرة: اللحظة الفارقة في تاريخ الإنسان) .

وخذ على ذلك مثالين:-

الأول/ [الحب] الذي ينظر له في الفلسفة المادية أنه مجرد "كيمياء عصبية" -أنظر إلى هذا التصور القبيح لأجمل معاني الوجود!- ، بينما نرى العربي يقول في شعر مجنون ليلى [لو رقي به مجنون لأفاق] فيُغلِّب المعنى الروحي في الحب على ماديات الحياة لأنه لا ينظر إلى الإنسان بعين عوراء لا تبصر منه سوى الدم والعظام يكسوها اللحم وإنما ينظر إليه نظرة البصير التي تبصر جانبه الروحي كما تبصر جانبه المادي.

وقد بلغت الفلسفة العربية الإنسانية من الرقي أنها في كثير من الأحيان ترى الجوانب المعنوية للإنسان والحياة أشد واقعية وأعظم قيمة من الأمور الحسية، ففي "بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب" للألوسي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبعض ولد هرم بن سنان: أنشدني بعض مدح زهير بن أبي سلمى لأبيك؟ فأنشده، فقال عمر: إنه كان يحسن فيكم القول، فقال: ونحن والله كنا نحسن له العطاء، فقال عمر [قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم!].

ولقي ابنةً لزهير فقال لها: ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك؟ فقالت: أبلاها الدهر! ، فقال [ولكن الحلل التي كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر].

الثاني/ [الحرية] -التي يتكلم عنها الجميع اليوم- فإن مفهومها عند العربي ينطلق من نظرته لـ"الإنسان"، ومن هنا ترى الأعراب إلى يوم الناس هذا يصفون من كمل خُلقه من الرجال والنساء بـ(الحرية) لأن صاحبها لم يقيده شقه المادي عن رقيّه الروحي الإنساني فهي عندهم بمعنى "الأصالة" و "النبل"، أي أن الحرية عندهم هي أن يكون المرء [إنسانا حرا] لا أن يعيش حياة البهائم ثم يسمي ذلك "حرية"!.

أما الفلسفة المادية التي لا تبصر من الإنسان سوى الدم والعظام فإن مفهوم الحرية عندها هو أن يفعل المرء ما يشاء ما لم يضر غيره والضرر عندهم هو المادي فقط لا المعنوي، يقول الدكتور ويل ديورنت معلقا على ذلك [والحق ان الخيل والحمير لن تعدم وقتئذ سبيلا للسير مع الناس جنبا إلى جنب والإستمتاع بكل ما لـ"الأحرار" من حقوق وكرامات] "قصة الحضارة:8/277" بمعنى أن هذا المفهوم للحرية هو مفهوم "حيواني" لا "إنساني" .

إن ظاهرة "الإنسان مختلفة عن كل الظواهر "الطبيعية" الأخرى فلها موازينها الخاصة بها والمختلفة عما سواها، وذلك أن العلوم كما سبق ثلاثة أنواع (علوم خبرية) و (علوم مادية تجريبية) و (علوم انسانية) ولكل منها منهجه الخاص، ودعوى "توحيد المناهج" للعلوم المختلفة والتسوية في ذلك بين العلوم المادية

والعلوم الإنسانية هي أثر من أثار الفلسفة المادية، وذلك أن الماديين عندما يدرسون الإنسان إنما يدرسونه على طريقة (ناشونال جيوغرافيك) فهم في الحقيقة لا يدرسون "الإنسان" من حيث هو إنسان وإنما يرصدون الأشياء المادية المشتركة بين البشر وغيرهم -حجم الجمجمة مثلا!- فهم ينظرون إلى البشر فلا يرون منهم سوى "هياكل عظمى".

وهؤلاء الذين ينظرون إلى الإنسان نظرة مادية حيوانية -"علمية" كما يسمونها- لا يرون له قيمة إلا بقدر كفاءته المادية، ولذلك وبحسب فلسفتهم لا مانع من "الإنتقاء" بالتخلص من الضعفاء والإبقاء على الأقوياء كما تفعل النحل في خلاياها، الأمر الذي فعلته النازية التي هي نتاج "الفلسفة المادية" (١٩) ، والتي قررت التخلص من الأطفال المعوقين والمسنين العاجزين لأنهم بحسب تعبيرهم (أفواه تأكل ولا تنتج) -والإنتاج عندهم هو مجرد الإنتاج المادي وحده- فهي عملية رياضية يقومون فيها بحساب ما ينتجه الشخص وما يستهلكه فإن كان إستهلاكه أكبر من إنتاجه إستحق الموت، وقد قتل النازيون أكثر من سبعة وسبعين ألف طفل معوق ومسن عاجز من الشعب الألماني ثم كتب احد علمائهم [أن ذلك قد وفر على الإقتصاد الوطني النازي ما يقرب من خمسمئة ألف طن من المربى] بمعنى أنها "مسألة علمية"!.
ومثلها "الرأس مالية" التي ترى أن عدد السكان في العالم اليوم يتجاوز نسبة الثروات الموجودة وأننا بحاجة إلى تقليل هذا العدد.

ومن قبلهم قوم شعيب {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [قال سعيد بن جبير ، والثوري : كان ضرير البصر، وكان يقال له (خطيب الأنبياء)] "تفسير ابن كثير" ولكن النظرة المادية لا ترى قيمة الإنسان إلا بميزان المكاسب المادية أما جوانب الحياة الأخرى كالدين والخلق والفن والأدب فلا وزن لها أو هي أشياء جانبية والمادة هي الأصل في حساباتهم ولذلك لم تبصرها أعين قوم شعيب وكان ميزانهم في تقييمه ميزانا ماديا لا وزن فيه للدين والخلق والفن -الخطابه- .
فالمنظومات المادية كلها كـ(المدْيَنِيّة) -قوم شعيب- و(النازية) و(الرأس مالية) ... الخ رغم إختلافها وتصارعها تنطلق من منطلق واحد في نظرتها للإنسان والكون لا تفرق فيه بين "الإنسان" و "الحشرات" إلا بما تبصره عين المجهر، فمهما تعددت صور الأفكار عندهم فإن نظرتهم للإنسان واحدة، وسبب ذلك تصورهم أن الإنسان كان "حيوانا" كاملا ثم تطور إلى "شبه حيوان" ثم صار "إنسانا" ذو أصل حيواني أو بتعبير آخر حيوان ذكي .. فعلى ذلك يبنون فلسفاتهم.
والحق أن الفكر المادي الحديث الذي بدأ بإدعاء أن الإنسان كان" حيوانا" إنتهى بفلسفاته وعلومه إلى تحويله لذلك حقيقة! ، وانظر على سبيل المثال الفلسفة "النباتية" التي تحرم أكل اللحوم لأن قتل الحيوان عندهم كقتل الإنسان ولا فرق إذ كلاهما في منظورهم شيء واحدا! .

أما العربي فإن نظرته للبشر نظرة "إنسانية" لا مادية فقط، فالإنسانية ليست صفة بيلوجية وإنما هي منظومة ذوقية وأخلاقية كلما كان نصيب المرء منها أكبر كان أكمل إنسانية، ولذلك قالت العرب:
إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال الآخر:

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته

اتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على الروح فإستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
فإذا خلى المرء عندهم من الجوانب الروحية لم يعد "إنسانا"، فليس كمال الإنسانية عندهم بالكفاءة المادية فحسب وإلا لكانت السباع والبهائم أشد إنسانية من البشر فإن كفاءتها المادية في أداء وظيفتها أعلى من كفاءة الإنسان في كثير من الأحيان سواءا من جهة الخلقة أو السلوك فهي مثلا لا تضيع جهدا ولا وقتا خارج إطار منافعها المادية وقديما قالت العرب [الذيب ما يهرول عبث] فهل هذا يجعله أكثر عظمة وإنسانية من البشر؟!.

هذا ولتعلم أن النظرة المادية للكون ليست بجديدة ولا هي بوليدة التطور العلمي فإن مقولة ماركس [لا إله والحياة مادة] قالها شذاذ الأعراب في صحراءهم قبل أكثر من ألف عام [إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر]، فـ"المادية" ليست هي النتيجة الحتمية للعلم كما يتوهم البعض.

(١٩) انظر في ذلك كتاب [الحداثة والهولوكوست] لعالم الإجتماع الكبير زيجموت باومان.

وقد كان "الأنبياء" عليهم السلام عبر تاريخ البشرية هم رواد العلم -بمعناه المادي- والفكر الإبتكار والإبداع، إذ هم أكمل الناس عقولا وأحدهم أذهانا وأقدرهم على فهم أسرار الحياة، ومع ذلك لم يغير هذا نظرتهم الإنسانية للإنسان :-

فهذا آدم عليه السلام أعظم "مستكشف" في الوجود كما وصفه ربنا جل وعلا بقوله {وعلم آدم الأسماء كلها} أي علمه أسماء ما خلق في الأرض من الدواب والهوام والنبات لأنه مستخلف فيها كما قال تعالى {إني جاعل في الأرض خليفة} يصلحها ويرعى شؤونها، قال اهل التفسير : علّم الله آدم سر الإهتداء إلى أحوال الأشياء وخصائصها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ثم كان ادم عليه السلام يضع لها من الأسماء ما يوافق حقيقتها، وذلك أن [أصل اللغة لا بد فيه من "المواضعة" : وذلك بأن يضع حكيمان أو ثلاثة لكل واحد من الأشياء سِمَةً -وصف- ولفظاً -إسم-] "الخصائص لإبن جني".

والمقصود أن الله علمه ما يسمى اليوم بـ (منهج البحث العلمي) في البحث عن ماهيات الأشياء ومنافعها وتسميتها بما يدل على هذه المعاني فيها، ولذلك قال أهل التفسير عند هذه الآية: أن الله علم آدم أسماء ما كان في زمانه من أشياء وعلم ذريته من بعده أسماء زمانهم، فكل إكتشاف تكتشفه البشرية إلى قيام الساعة راجع إلى تعليم الله لأبيهم آدم!.

وهذا نوح عليه السلام مخترع السفينة، واعظم عالم في تاريخ البشرية فيما يسمى اليوم بـ[علم الحيوان] -Zoology-.

و"الخرافيون" عند وقوفهم مع قصته عليه السلام يتخيلونه حين أمره الله أن يحمل معه في سفينته من كل حيوان كان في البيئة المحيطة به زوجين اثنين أنه نادى في الحيوانات بصوت واحد فأقبلت مذللة مذعنة بغير قياد فصعدت إلى السفينة دون أن يكون نوح عليه السلام ومن آمن من قومه قد أمضوا السنوات الطوال في تتبعها ودراستها ومن ثم اصطيادها وجمعها وتهيئة البيئة المناسبة لها وتصميم السفينة بما يخدم هذا المقصد !.

والواقع بخلاف هذا التصور الخرافي وسنن الشرع والقدر تأباه ولهذا جاء في الخبر أن نوح عليه السلام مكث في بناء السفينة وتهيئتها مئتي عام، بل وروي أنه عليه السلام حين ركب في السفينة خدر السباع لكي لا تفترس باقي الحيوانات فكان اول انسان يفعل ذلك في تاريخ البشرية فيما نعلم؛ وهذا كله مما يبين ضلال التصور الخرافي لحياة الأنبياء ويكشف لنا جانبا من عبقريتهم عليهم السلام وكونهم كانوا مؤسسي العلوم ومطوريها في تاريخ الإنسانية ورواد الصناعات والإبتكارات فيه .

وهذا إبراهيم عليه السلام إمام البشرية في مختلف أبواب الحياة : ففي "علم الإجتماع" كان أول من أعد دار الضيافة -مقهى- وجعل لها بابين للدخول والخروج ثم صارت (آداب الضيافة) من بعده ثقافة إنسانية تطورها كل امة بأسلوبها حتى أصبحت اليوم جزء من القانون الدولي وصار للدول فيها بروتوكولات وموظفين ووزارات مخصوصة، وفي "الطهو" كان إبراهيم أول من صنع الحنيذ -ففن الطبخ المعاصر هو امتداد للمدرسة النبوية- ، وفي "العلوم العسكرية" كان أول من نظم الجيش من الأنبياء وقسمه إلى ميمنه وميسرة وقلب، وأول من صنع القوس والسهم فيما يروى -وجميع الصناعات الحربية اليوم ترجع إلى ذلك- ، وكان إبنه إسماعيل عليه السلام أول من ركب الخير وقد كانت من قبله وحشية لا تألف البشر فكل تطور احدثته البشرية بعد ذلك في المراكب كالسيارات والطائرات إنما هو امتداد لذلك بل العجيب أن قوة هذه المراكب اليوم تقاس على حصان إسماعيل ! .

وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع.

وكان زكريا نجارا -فن الديكور بصطلح اليوم-.

وكان إدريس خياطا -أي مصمم أزياء!-.

وفي "العلوم السياسية" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي]، وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم حاكم في تاريخ البشرية غيرت دولته وجه التاريخ والحضارة الإنسانية ، وكان يوسف عليه السلام "وزير المالية" في مصر في عصورها الذهبية .

بل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -وكثيرون أمثاله من العلماء- لم تقتصر معارفه على "العلوم الشرعية" وحدها بل تكلم في الطب والفلك واللغات والهندسة والطيران وغيرها، وله اللفتات العجيبة في علم النفس كقوله عن الأثر النفسي لتعلم الحساب على عقل الإنسان [ففي الإدمان على معرفة ذلك تعتاد النفس العلم الصحيح والقضايا الصحيحة الصادقة والقياس المستقيم فيكون في ذلك تصحيح للفهم والإدراك وتعويد للنفس أن تعلم الحق وتقوله لتستعين به على المعرفة التي فوق ذلك]! "الفتاوى :9/128" .

وعبر تاريخ الحضارة الإسلامية كان عامة "المؤرخين" هم من علماء الشريعة وقد بلغوا بعلم التاريخ درجة من الرقي العلمي والجمالي لا توجد عند أمة من الأمم ويكفي في ذلك إبن خلدون الذي يعد مؤسس علم الإجتماع و[مقدمته] الشهيرة لتاريخه التي هي مفخرة للبشرية جمعاء .

وإن شئت فأنظر للإستزادة في هذا الباب كتاب [الجامعون بين العلوم الشرعية والعلوم التجريبية] لعواد الخلف وقاسم علي سعيد.

وبعد ذلك التطواف كله نعود لنقول: إن "الإنسان الكامل" المتوازن هو الذي يرى الكون بكلتا عينيه -المادية والروحية-، ولذلك كانت اللحظة الفارقة في تاريخه هي حين توقف عن مطاردة الصيد ليقيم الصلوات لأنه عندها فقط تجاوز الماديات إلى ما هو أعلى منها فصار إنسانا !.

وهذا المفهوم -علاقة التدين بالإنسانية- نراه حاضرا بقوة في الإسلام حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبه بالحيوانات في الصلاة [فنهى عن التشبه بالغراب في النقر، والتفات كالتفات الثعلب، وافتراش كافتراش السبع، وإقعاء كإقعاء الكلب، ورفع الايدي في السلام كأذناب الخيل، وبروك كبروك البعير]! (تهذيب السنن 1/406) .

فائدة: كان التصور الإنساني البسيط لـ[الإله] هو أنه شيء فوق المادة مختلف عنها وذلك هو مفهوم (التوحيد) ، أما المفهوم الوثني للإله فهو في حقيقته نظرة مادية للإله بجعله شجرا أو حجرا -ومنه الوثنية الحديثة "الطبيعة الأم"- أو حتى جعله إنسانا أو شبه إنسان ونحو ذلك فهذه (الوثنيات) كلها سببها النظرة المادية للكون والحياة .

وهذه النظرة المادية هي التي جردت جميع العلوم الحديثة من إنسانيتها فأبقت على جانبها المادي فقط وألغت ما سواه وجعلت تحاكم الأمور كلها إلى قوانين المادة

وحدها ثم زعمت بغرور لم تسبق إليه أن ما عرفته هو "العلم" وما جهلته هو "الخرافة" وإدعت أنها في ذلك كله "علمية محايدة" لا تنحاز إلى مفاهيم و أحكام مسبقة والحقيقة هي أن [العقل كالجسم سجين جلده لا يستطيع الفكاك منه] "قصة الحضارة" فلا يوجد شيء إسمه (علم محايد) بمعنى أنه غير متأثر بثقافة وفلسفات أهله لأن "العلم" هو تفسيرنا نحن للواقع وهذا التفسير إنما يصاغ بناءا على نظرتنا للوجود وهذا الأمر هو الذي يغير صورة العلم عند كل أمة من الأمم ويعيد صياغته إنطلاقا من ثقافتها.

ولذلك إذا نظرنا للتاريخ العربي مثلا فسنجد عشرات الأخبار لأناس أضرهم الشوق حتى عرضوا على الأطباء فأخبروهم أن ما بهم إنما هو "داء العشق"!، ومن أدوية العرب لهذا الداء (السلوانة) وهو شراب مرقي يسقاه العاشق فيسلو عن محبوبه، وفي ذلك يقول عروة بن عزام:

جعلت لعراف اليمامة حكمه

وعراف نحد، إن هما شفياني

فقالا: نعم! نشفي من الداء كله

وقاما مع العواد يبتدراني

فما تركا من **رقية** يعرفانها

ولا **سلوة** إلا وقد سقياني

وقال آخر:

ولقد سقوني **سلوة** فكأنما

قال المداوي للخبال بها إزددِ

وآخر سقوه فسلا فهو يدعو على من سقاه:

سقوني **سلوة** فسلوت عنها

سقى الله المنية من سقاني

ولما مرض الإمام سفيان الثوري أخذوا بوله للطبيب فنظر فيه وقال [بول من هذا؟، ينبغي أن يكون هذا بول راهب، هذا رجل قد فتت الحزن كبده، ما لهذا دواء] "مسند الجعد" فكانت هذه نتيجة التحاليل المخبرية! ، وهذا نوع من الطب لا يوجد اليوم إلا على إستحياء لغلبة النَفَس المادي على العلوم الحديثة قال الدكتور عبدالوهاب المسيري [العلوم الطبيعية تدرس اليوم معبأة بالمفاهيم الفلسفية المادية فقولنا مثلا عن عالم الذرة أنه "عالم فوضى" هو في الحقيقة صياغة إلحادية صيغت على هيئة (حقيقة علمية) والصياغة العلمية الصحيحة أن يقال: أننا نحن لم نفهم حركة عالم الذرة حتى الآن، وهذه الصياغة أكثر "علمية" من الصياغة الإلحادية الموجودة اليوم

في هذه العلوم والتي تعرض على أنها (حقيقة علمية) و (محايدة) لا على أنها مجرد تفسير للظواهر على ضوء فلسفة معينة لها نظرتها للكون وللإنسان] "ندوة علي عزت بيجوفيتش" وما احسن قول القائل:

تصفحت آلافا من الكتب باحثا

عن "الحق" علّ الحق يجيله ساطر

إلى أن وجدت الحق في أصل فطرة

تعامت لمسخ الطبع عنها البصائر

وأدركت أن العقل مهما بعلمه

تسامى، عن الإيحاط بالعلم قاصر

خاتمة ..

إستعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من إختلال الإنسانية في أنواع العلوم الثلاثة فقال:

[اللهم لا يدركني زمان أو أدرك زمان قوم:

١- لا يتبعون العليم -فساد في العلم التجريبي (البصري)- .

٢-ولا يستحييون من الحليم -فساد في علوم الدين والخُلق (السمعي)- .

٣- قلوبهم قلوب الأعاجم -فساد في العلوم الإنسانية (القلبي)- .

وألسنتهم ألسنة العرب -ولكنهم بدلوا مفاهيمهم العربية-] رواه أحمد .

لأن أي إخلال بأحد أنواع العلوم الثلاثة هو نزول عن رتبة كمال الإنسانية ..

ملحق:

{بشر مثلكم} ..

ان من مشكلات (التدين المعاصر) إيهامه الناس بإنقطاع الصلة البشرية بينهم وبين الأنبياء وأتباعهم من خلال وضعهم في خانة "الملائكه" و وضع الإنسان المعاصر في خانة "الشياطين" .. وهو بذلك يكذب مرتين !.

والذي لا يشك فيه عاقل أنه لولا كمال بشرية الأنبياء لما كانوا أهلا للنبوة وقيادة الإنسانية، قال تعالى {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} وقال {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} قال إبن عباس رضي الله عنه مبينا صفة هذا الكمال الإنساني الذي وفاه إبراهيم [إبتلاه الله بالطهارة، خمس في الرأس، وخمس في الجسد: في "الرأس" قص الشارب والمضمضة والا ستنشاق والسواك وفرق الرأس، وفي "الجسد" تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء].

فإهمال الجوانب البشرية التي كمل فيها الأنبياء وكانوا فيها للناس أئمة، وقطع الصلة في ذلك بينهم وبين الإنسان المعاصر بإخراجهم في عقول الناس وقلوبهم عن إطار بشريتهم بحجة التقديس هو في الحقيقة (صناعة للخرافة).

وهذه لمحات سريعة ألتقطها لك ترى بها خطأ مفهوم "التدين المعاصر" حول الإنسانية ومسخه لها إلى ملائكية واهمة لا تحقق لها في غير خيالات أهلها التي هي أبعد شيء عن تدين الأنبياء البشري الذي قال الله فيه {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ} فلم يكتف بقوله (بشر) حتى قال (مثلكم) ليصل الحبال التي يريد الخرافيون قطعها! ، والله عز وجل يقول {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ} أي مخالفك أيها النبي في تدينك البشري هو المقطوع المنبت الذي لا أصل له ولا فرع في هذه السلسلة "الإنسانية" التي يقودها الأنبياء، فهم أئمتها في كل باب من أبواب الحياة كما سترى، وقد روى ابو نعيم في "معرفة الصحابة" عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله في الأزد حين وفدوا عليه فسألهم وأجابوه [حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء] فجعل "العلم" و "العقل" سببا لإستحقاق النبوه لو كانت تؤتى لأحد من بعده .

1- العلم الطبيعي :-

إن فصل "رجال الدين" عن "علوم الدنيا" فكرة منحرفة صنعها كسالى المتدينين الذين قصرت همتهم عن القيام بواجبهم الإنساني في عمارة الأرض وتسخيرها، وهي فكرة مبطلة لكمال الأنبياء الذي به كانوا أهلا للنبوة ولقيادة الأمم، ولذلك كان الأنبياء عبر تاريخ البشرية هم أهل العلم -بمعناه المادي- والفكر والإبتكار والإبداع إذ هم أكمل الناس عقولا وأحدهم أذهانا وأقدرهم على

كشف أسرار الكون والإنسان والحياة [فإن الطبيعة الآدمية لا عصر لها بل هي طبيعة كل عصر، والفضيلة الإنسانية يبدأ تاريخها من الجنة فهي لا تتجدد .. ولا تزال تلوح وتختفي] "وحي القلم: 1/178" .

فهذا **آدم عليه السلام** أبو البشر وأول الأنبياء: كان أعظم "مستكشف" في الوجود قال تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} أي علمه أسماء ما خلق في الأرض من الدواب والهوام والطير لأنه سيستخلف فيها، وقد فسر أهل العلم ذلك: بأن الله ألهم آدم سر الإهتداء إلى أحوال الأشياء وخصائصها ومنافعها فكان آدم عليه السلام يشتق لها من صفاتها أسماءا توافق حقيقتها، ولذلك قال أهل التفسير عند هذه الآية [علمه ما كان من الأشياء في زمانه وعلم ذريته من بعده أسماء زمانهم] فكل إكتشاف علمي تكتشفه البشرية إلى قيام الساعة راجع إلى تعليم الله لآدم لأن هذا المنهج العلمي صار من بعده غريزة مركوزة في عقل ذريته.

وهذا **نوح عليه السلام** صانع أكبر سفينة في التاريخ وأعظم عالم في (علم الحيوان - Zoology) ،والخرافيون عند وقوفهم مع قصته يتخيلونه عليه السلام حين أمر أن يحمل من كل حيوان في أرضه زوجين إثنين أنه نادى بصوت واحد فصعدت جميع الحيوانات إلى السفينة مذللة مذعنة بغير قياد، دون أن يكون نوح عليه السلام أمضى السنوات الطوال في تتبعها ودراستها ومن ثم إصطيادها وجمعها وتهيئة البيئة المناسبة لها داخل السفينة وتصميمها بما يخدم هذا المقصد لتكون أول محمية للحيوان في تاريخ البشرية حتى أنه كان أول من خدر السباع حتى لا تفترس باقي الحيوانات كما ذكر أهل التفسير ،ولذلك بقي عليه السلام

يعمل على هذا الأمر مئتي سنة قبل الطوفان! ، وقد سار على خطى نوح عليه السلام العلامة كمال الدين النميري الشافعي حين ألف كتابه العظيم [حياة الحيوان الكبرى] الذي يعد في زمانه بمثابة قناة وثائقية تعنى بعالم الحيوان.

[وقالوا: أول من عمل القراطيس -ورق البردي- **يوسف عليه السلام**] "الأوائل للعسكري: ٤٢٤"، وكان يتكلم سبعين لغة كما في "البداية والنهاية".

وهذا **سليمان عليه السلام** مكتشف سر الطيران وهو أعظم علماء الفيزياء في تاريخ البشرية بتسخير الله وتعليمه له، وبهذا العلم بنى قصره العظيم كما سيأتي .

وهذا **عيسى عليه السلام** أعظم الأطباء على الإطلاق في الطب البشري والبيطري قال تعالى {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي} قال إبن كثير رحمه الله [وأما عيسى- عليه السلام- فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد] "ابن كثير: ٢/٣٧".

وقد ذكر طبيب اليونان جالينوس في شرحه لكتاب (الإيمان) لأبوقراط أنهم تلقوا علم الطب عن أنبيائهم فقال [والصواب عندنا أن الله خلق علم الطب وألهمه الناس لأن هذا العلم لا يمكن إدراكه بالعقل -إبتداءا-] ، وكذلك قال أفلاطون في كتابه (العقل)،

ويذكرون أن أول من إبتدأه هو نبي الله **إدريس عليه السلام** الذي يسمى باليونانية "هرمس" و بالعبرية "أخنوخ" .

وروى الحاكم عن إبن عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل جلس عنده و هو يحدث أصحابه [ادن مني فأحدثك عن الأنبياء المذكورين في كتاب الله: أحدثك عن آدم أنه كان عبدا حراثا، و أحدثك عن نوح أنه كان عبدا نجارا، و أحدثك عن إدريس أنه كان عبدا خياطا، و أحدثك عن داود أنه كان عبدا زرادا -حدادا- ، و أحدثك عن موسى أنه كان عبدا راعيا، و أحدثك عن إبراهيم أنه كان عبدا زراعا، و أحدثك عن صالح أنه كان عبدا تاجرا، و أحدثك عن سليمان أنه كان عبدا آتاه الله الملك] ومعلوم لكل عاقل أن كمال الأنبياء يقتضي إمامتهم في كل مجال من هذه المجالات وأنهم لم يكونوا فيها من الخاملين بل كانوا من عباقرتها المبدعين كما مر معنا في خبر نوح عليه السلام أنه صنع أكبر سفينة في التاريخ فلم تكن نجارته كسائر النجارين بل جاء عند المفسرين أنه كان يزرع شجر سفينته بنفسه لينتقي نوع الخشب ولذلك مكث في صناعتها مئتي سنة كما سبق، وقل مثل ذلك في سائر مجالات الحياة التي دخلها الأنبياء وسيأتي معنا شيء من بيان ذلك .

2- السياسه :-

لم يكن الأنبياء مجرد نسّاك لا دور لهم في القيادة والإصلاح ورعاية شؤون الناس والقيام بمصالحهم، بل كانوا عليهم السلام هم رجال الفكر والسياسة وصناع القرار في أزمانهم.

ففي (العلوم العسكرية) هذا **إبراهيم عليه السلام** أول من قسم الجيش إلى كتائب ميمنة وميسرة وقلب، وهو أول من ضرب بالسيف من الأنبياء.

و [أول من ركب الخيل **إسماعيل عليه السلم** وكانت قبل ذلك وحشا -لا تألف البشر- فأخذها وصانعها فأنست -ألفت الإنس-، وتعلم ولده صناعتها منه فبقي علمه فيهم ولهذا إختصت العرب بالمعرفة بها] "الأوائل للعسكري : 425" والعجيب أن السيارات الحديثة اليوم تقاس قوة محركاتها على حصان إسماعيل! ، وقيل انه عليه السلام أول من رمى بالسهم من الأنبياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إرموا بني إسماعيل إن أباكم كان راميا] البخاري فكل تطوير في علم صناعة الأسلحة والمقذوفات راجع إلى إبتكار إسماعيل عليه السلام وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام [ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي،ألا إن القوة الرمي] رواه مسلم .

وفي (الملك) هذا **سليمان عليه السلام** أعظم ملوك الدنيا {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}، ومن قبله **داود عليه السلام** ملكا وفارسا من أعظم القادة العسكريين وكان حدادا فهو أول من صنع الدروع قال تعالى {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} .

بل قال عليه الصلاة والسلام [كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ **الأَنْبِيَاءُ**، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وإنَّه لا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ] رواه مسلم، فأخبر أن **الأنبياء عليهم السلام** كانوا هم الزعماء والقادة .

وأما **نبينا عليه الصلاة والسلام** فقد أقام "إمبراطورية" من العدم حكمت في سنوات قليلة مشارق الأرض ومغاربها فملأت الدنيا نورا وعدلا وجمالا .

3- الفن والجمال :-

إن الدين كان هو صانع الجمال على طول خط التاريخ الإنساني، وآثار هذا الجمال التي يقوم عليها الفن اليوم إنما هي في مجملها ذات أصول دينية.

ففي (العناية والتجميل) أثنى الله على **إبراهيم عليه السلام** لعنايته بهذا الباب وابداعه فيه فقال {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} قال إبن عباس [ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد، في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفي الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء] ، فكل إبداع وجمال يحدثه الناس في باب التجميل فإنما هو إمتداد وتطوير لعمل إبراهيم عليه السلام.

وقد كان **نبينا عليه الصلاة والسلام** يدهن شعره ويضع كيس الشعر "القناع" على رأسه الشريف في كل اسبوع ثلاثا أو اربعا، ويكتحل كل يوم وكان يقول [من كانَ لَه شعرٌ فليُكرِمْه] رواه أبو داود .

وأمنا **هاجر عليها السلام** زوجة إبراهيم أول من ثقبت أذنيها من النساء بأمر منه عليه السلام، فكل زينة تستعملها النساء في هذا الباب إنما هي تطوير لذلك.

وفي (النظافة الشخصية) كان **إبراهيم عليه السلام** مداوما على المضمة والإستنشاق وتنظيف أسنانه وقص الأظافر وقد أثنى الله عليه بذلك .

[وأول من عمل الصابون **سليمان عليه السلام**] "الأوائل للعسكري : 424"، و [أول من عملت له النورة -لإزالة شعر البدن- سليمان عليه السلام] "الأوائل للعسكري".

وهو أول من صنع الحمّام العمومي، ومنه اليوم غرف الساونا وغيرها مما هو على شاكلتها .

وفي (الموضة) [أول من خاط الثياب ولبسها **إدريس عليه السلام** وكانوا قبله يلبسون الجلود، وهو أول من خط بالقلم على ما قالوا والله أعلم] "الأوائل للعسكري" أي أنه عليه السلام كان مصمم أزياء .

وكذلك كان **لقمان عليه السلام** كما روى أحمد في "الزهد" .

[وأول من لبس العمامة **إبراهيم عليه السلام**، وكان لنبينا **محمد صلى الله عليه** عشر عمائم] "أزهار الكمامة في أخبار العمامة" لشهاب الدين المقري.

[وأما **إسرائيل -يعقوب عليه السلام-** فأحب يوسف عليه السلام أكثر من سائر بنيه فصنع له قميصا ملونا] "سفر التكوين".

وروى أبو داود [أنَّ **النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ** لبسَ جُبَّةً روميَّةً ضيِّقةَ الكُمَّينِ]، وعند البخاري أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد أن يتوضأ يخرج يده منها لشدة ضيقها! ، وفي حديث البراء [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مربوعًا، بعيد ما بين المنكبين، له شعر بلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلة حمراء لم أرَ شيئًا قط أحسن منه] متفق عليه، وقال جابر رضي الله عنه [رأيتُ رسولَ اللهِ في ليلةٍ إِضْحِيانٍ -صافية السماء مضيئة- وعليه حُلَّةٌ حمراءُ ، فجعلتُ أنظرُ إليه وإلى القمرِ ، فلهوَ عندي أحسنُ من القمرِ] رواه الترمذي ، و[اختلف العلماء هل لبس السراويل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أم لا -لأنها ليست من لباس العرب في وقته-؟ قال في الآداب الكبرى: قد رُوِي عن **إبراهيم** و **موسى** عليهما السلام أنهما لبساه ولبسه **النبي صلى الله عليه وسلم**] "غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب".

وقال له رجل [إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً؟ فقالَ: (إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ)] رواه مسلم .

وفي (الديكور والإتيكيت) قال إبن عباس رضي الله عنه [إن الله وسع على **خليله -إبراهيم عليه السلام-** في المال والخدم، فاتخذ بيتا للضيافة له بابان يدخل الغريب من أحدهما ويخرج من الآخر، وجعل في ذلك البيت كسوة الشتاء والصيف ، ومائدة منصوبة عليها طعام، فيأكل الضيف ويلبس إن كان عريانا] "غذاء الألباب شرح منظومة الآداب" .

وكان **سليمان عليه السلام** إمام هذا الباب وقد بلغ فيه مبلغا أن بنى قصرا من زجاج على ظهر بحيرة صناعية فيها أجمل الأسماك وأعجبها قال تعالى {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ

حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ}
قال ابن كثير [كان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج، وعمل في ممره ماء، وجعل عليه سقفا من زجاج وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء] "البداية والنهاية" .

وفي (الغناء) قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا **دَاوُودَ** مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} قال إبن كثير [قال عبد الله بن عامر: أعطي داود من حُسن الصوت ما لم يعط أحد قط، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله، حتى يموت عطشا وجوعا -وهو لا يشعر لشدة انجذابه لصوت داود- ، وحتى إن الأنهار لتقف.

وقال وهب بن منبه: كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص! ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله، فيعكف الجن، والإنس، والطير، والدواب على صوته، حتى يهلك بعضها جوعا] "البداية والنهاية".

ولك أن تتخيل إجتماع جمال صوته مع صدى الجبال وتغريد الطيور من حوله تحاكي لحونه {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}!.

وفي (الثقافة والفكر) كان إمام هذا الباب نبي الله **لقمان الحكيم عليه السلام** قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ} فكان إماما في الحكمة وآداب التحضر، وقد ذكر الشهرستاني في (الملل والنحل) و الغزالي في (القسطاط المستقيم) أن فلاسفة اليونان الأوائل أخذوا علومهم عن أنبيائهم ولذلك بقيت آثار النبوة في كلامهم كالقول بالمعاد و المحرك الأول ونحو ذلك*.

* ولعل من ذلك أيضا قول أبوقراط [العادة إذا قدمت صارت طبيعة ثانية] فإنه يشبه كلام الأنبياء وفي الحديث [إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم] رواه الطبراني ومعلوم أن مشكاة النبوة واحدة .

وقد نقل القاضي صاعد الأندلسي في (طبقات الأمم) أن الفيلسوف إبن دقليس أخذ الحكمة عن نبي الله **لقمان عليه السلام** في الشام، ونقل إبن أبي أصيبعة في كتاب (الأطباء) عن أفلاطون أنه ذكر في كتابه "النواميس" محاورة بين أحد الفلاسفة وأحد **الأنبياء عليهم السلام** والله عز وجل يقول {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} ويقول {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} .

وفي فن (الكتابة والأدب) كان **إدريس عليه السلام** [هو أول من خط بالقلم على ما قالوا والله أعلم] "الأوائل للعسكري"، وكان النبي صلى الله عليه إذا ذكر **شعيبا عليه السلام** قال [ذاك خطيب الأنبياء] "المستدرك للحاكم"، وقال علي رضي الله عنه [أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة **إسماعيل**] فتح الباري (6/ 403) ومن هنا كانت اللغة العربية فائقة كل اللغات لأن فيها وضعا إلهيا إرتقى بها عن مرتبتها البشرية المحضة حتى قال المستشرق الفرنسي ارنست رينان مع -رغم كونه كارها للعرب- [في القرن السادس الميلادي يتراءى في جزيرة العرب عالم زاخر بالحياة وبالشعر وبالرقي الفكري في بلاد لم تعط حتى هذا التاريخ اي دليل على وجودها، فبدون سابقة ولا تمهيد نلتقي فجأة بفترة "المعلقات" وغيرها من الشعر الذي احتواه كتاب (الأغاني)، شعر فطري في مضمونه بينما هو من حيث الشكل

في غاية الأناقة ولغته منذ البداية تفوق في لطائفها أشد انواع الكلام إمعانا في الثقافة وبه ألوان من الحصافة في النقد الأدبي والبيان تشبه ما نجده في أشد عصور الإنسانية إعمالا للفكر -إلى أن قال- وربما كانت اللغة العربية نفسها هي الظاهرة الأشد غرابة والأكثر إستعصاءا على الشرح والتعليل! ،فهذه اللغة المجهولة قبل هذا التاريخ تبدو لنا فجأة بكل كمالها ومرونتها وثروتها التي لا تنتهي، لقد كانت من الكمال منذ بدايتها بدرجة تدفعنا إلى القول إنها منذ ذلك الوقت إلى العصر الحديث لم تتعرض لأي تعديل ذي بال، فاللغة العربية لا طفولة لها ولا شيخوخة أيضا فمنذ ظهرت على الملأ ومنذ إنتصاراتها المعجزة قيل كل ما يمكن أن يقال عنها، ولست أدري إن كان يوجد مثل آخر للغة جاءت إلى الدنيا مثل هذه اللغة من غير مرحلة بداية ولا فترات انتقالية ولا تجارب تلتبس فيها معالم الطريق] "التاريخ العام والنحو المقارن للغات السامية" .

وفي (فن الطبخ) كان أول من إخترع الخبز هو **آدم عليه السلام** قال إبن عباس رضي الله عنه [أحدثك عن آدم أنه كان عبدا حراثا] "المستدرك"، ثم قال رضي الله عنه شارحا ذلك [أول طعام أكله آدم في الأرض، أن جاءه جبريل بحبات من حنطة، فقال: وما أصنع بهذا؟ قال: ابذره في الأرض فبذره، فنبتت، فحصده، ثم درسه، ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، فأكله] "تفسير الطبري" ، فكل إبداع من الناس في المخبوزات حلوها ومالحها فهو تطوير لوصفة آدم عليه السلام.

وكان **إبراهيم عليه السلام** أول من إبتكر "الحنيذ" فيما يظهر -وهو طهو الطعام في حفره او على صفيحة حجر- لأن وصفه بهذا الوصف {جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} يدل على أن له خصوصية إبداع فيه.

وكل تطوير في الأفران -ومنه المايكرويف وقدور الضغط الإلكترونية اليوم- فهو راجع إلى إبداع إبراهيم عليه السلام الذي لم يكتفي في الطبخ بالطرق التقليدية استعملها الناس من قبله.

ومما يلحق بحنيذ إبراهيم: الطبخ في "الفخار" و"المغش" -الإناء الحجري- فإنه تطوير لما كان يفعله عليه السلام من طهو في الحُفر وعلى صفائح الحجارة .

وقالت عائشة رضي الله عنها [كانَ **رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ** يُحِبُّ الحَلْوَاءَ والعَسَلَ] رواه البخاري، ومن عبقرية الأستاذة إيمان ميمني رحمها الله في هذا الباب أنها ألفت كتابا جمعت فيه وصفات **سيدنا محمد صلى الله عليه** سمته [على مائدة الحبيب].

وللإمام **السيوطي** رسالة ماتعة بعنوان [منهل اللطايف في الكنافة والقطايف] وفيه أن أول من صنع "الكنافة" هو طباخ **سيدنا معوية رضي الله عنه** في الشام ولذلك لا تزال إلى اليوم تنسب إلى أهل تلك البلاد ولا يفوقهم في صناعتها أحد .

لطيفة: تعد "القهوة" اليوم هي المشروب الأول في العالم، ويعود الفضل في إكتشافها وإبتداء صناعتها والتسويق لها إلى الشيخ الصوفي اليماني **علي بن عمر الشاذلي** الذي وجد شجرة البن

وهو يرعى غنمه في بعض الأودية عام ٨١٦هـ كما جاء في منظومة العمريطي عن القهوة، ولذلك لا يزال العرب إلى اليوم ينسبونها إليه وإلى أتباعه الذين سوقوا لها فيسمون القهوة بـ**"الشاذلية"** ومن أنواعها المشهورة في العالم "الموكا" نسبة إلى ميناء المخا اليمني الذي كانت تصدر منه ، وكان من طرق تسويقهم لها في العالم العربي نظم الأشعار في مدحها وذكر طريقة إعدادها وذكر فوائدها من الإعانة على طلب العلم والتنشيط للعبادة ونحو ذلك فإنتشرت سريعا في العالم العربي ومنه إلى العالم كله، وانظر تفاصيل ذلك في كتاب [سفر القهوة] للإستاذ عبدالكريم الشطي.

4- العشق والغزل:-

كان أول شعر عرفته البشرية هو قول **آدم عليه السلام** يتغزل في حواء بعد أن رأى طول حزنها لمقتل إبنها على يد أخيه:-

تغيرت البلاد ومن عليها

ولون الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم

وقل بشاشة الوجه المليح

لطيفة: ألف الوشاء كتابا في أخبار العشاق سماه **[التفاح]**! ، وسبب ذلك أن "التفاح" في الثقافة العربية هو رمز العشق لأن حواء عليها السلام حين أرادت أن تختبر آدم على حبها طلبت منه

أن يأكل تفاحة من الشجرة المحرمة فأكل منها ليثبت لها حبه، فأصبح التفاح في الثقافة العربية بسبب ذلك "طقسا" بين العشاق يتراسونه ويتهادونه، حتى كانت الفتاة التي تريد التعبير عن حبها ترسل لمحبوبها تفاحة مقضومة -كشعار شركة أبل!- لتقول له بذلك أنها على إستعداد لفعل كل شيء في سبيل هذا الحب، والعرب تسمي الشخص المحبوب "تفاحة" لهذا المعنى أيضا .

و كان **إبراهيم عليه السلام** محبا لهاجر لا يصبر على فراقها فسخر الله له البراق فكان يركبها فتطير به إلى مكة يبيت مع هاجر في كل شهر كما روى صاحب "إعتلال القلوب" .

وقد عشق **يوسف عليه السلام** زليخة وصبر على ما لقي من سجن وعذاب بسبب حبها، وإنتظرها سنين طويلة حتى مات زوجها فتزوجها وولدت له ولدين وهما "أفراثيم" و "منشا" قال تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا} .

و كان **داود عليه السلام** "شاعرا" ينظم القصائد في تعظيم الله وتسبيحه ودعاءه ثم يتغنى بها بصوته الحسن فتؤوب معه الجبال والطير*.

* ولذلك كانت المزامير التي تنسب لداود في كتب اليهود عبارة عن قصائد بالعبرية ، ومن عبقرية تراث حضارتنا العربية انها حين تُرجمت على يد "حفص بن ألبر القوطي" قاضي النصارة في الأندلس جاء إلى هذه القصائد فأخذ ما فيها من معاني ونظمها شعرا عربيا فحفظ لها جمالها ورونقها خلافا للترجمات الحديثة

لـ"الكتاب المقدس" التي نثرتها نثرا باردا سلبها هذه الروعة، وقد وصلتنا ترجمة حفص القوطي .

وعشق **سليمان عليه السلام** بلقيسا حين رأى شدة حسنها وذكاءها، وقد ذكروا أن أمها كانت من الجن وأبوها من الإنس فكانت بذلك أجمل نساء العالمين في زمانها وأشدهن ذكاءا ولذلك ملكها أهل اليمن عليهم .

وأوقف **نبينا عليه الصلاة والسلام** مسيرة جيش كامل للبحث عن عقد عائشة رضي الله عنها حين إنقطع وسقط منها كما روى البخاري ومسلم .

5- الأنس والمرح :-

كان **إبراهيم عليه السلام** أول من هيأ دار الضيافه وكان الناس قبله إنما يجتمعون في البيوت والطرقات، قال إبن عباس رضي الله عنه [إن الله وسع على خليله في المال والخدم، فاتخذ بيتا للضيافة له بابان يدخل الغريب من أحدهما ويخرج من الآخر، وجعل في ذلك البيت كسوة الشتاء والصيف ، ومائدة منصوبة عليها طعام، فيأكل الضيف ويلبس إن كان عريانا] "غذاء الألباب

شرح منظومة الآداب"، قال المناويُّ [كان يسمَّى أبا الضِّيفان، كان يمشي الميل والميلين في طلب مَن يتغدَّى معه، وكان لا يتغدَّى إلَّا مع ضيف] "فيض القدير" ، والمقاهي والدواوين والفنادق المفتوحة اليوم للناس هي صورة حديثة لـ"دار ضيافة" إبراهيم وكذلك كل مركز ونادي يجتمع فيه الناس فهو تطوير لهذه الفكرة النبوية .

وكان **<u>إسماعيل عليه السلام</u>** صيادا وهي رياضه الملوك من بعده، وفي الحديث [ارْمُوا بَنِي إسْمَاعِيلَ فإنَّ أبَاكُمْ كانَ رَامِيًا] رواه البخاري، وهو أول من روض الخيل، ولا تزال رياضتي **"الصيد"** و **"الفروسية"** في أبنائه إلى يوم الناس هذا .

وقد كان **<u>لنبينا عليه الصلاة والسلام</u>** خيل يسابق به، وقد رآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرة جاثيا على ركبتيه فرحا بسبق خيله، ولما بلغ عمر بن الخطاب بيت الحطيئة:

وإن جياد الخيل لا تستفزنا

ولا واضعات الريط فوق المعاصم

قال [كذب الحطيئة، لو ترك هذا أحد لتركه رسول الله] "الأغاني للأصفهاني" .

وقيل أن أول من إخترع لعبة كرة المضرب -الهوكي- هم **<u>فتية الكهف</u>** وقد أورد إبن باطيش خبر ذلك مفصلا في "غاية الوسائل إلى معرفة الأوائل".

وقالت عائشة رضي الله عنها [خرَجتُ معَ **رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ** في سفَرٍ فقالَ لي رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ: تعالَى حتَّى **أسابقَكِ** فسبقتُهُ، فخرجتُ معَهُ في سفرٍ -آخر- فنزلنا منزلًا فقالَ لي: تعالَى حتَّى أسابقَكِ قالت: فسبقَني فضربَ بينَ كتِفَيَّ وقالَ: هذِهِ بتلْكِ] رواه ابو داود.

وكان عليه الصلاة والسلام **يصارع** أصحابه.

وعند إبن حبان [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس وكانوا **يجلسون فيتحدثون** ويأخذون في أمر الجاهلية **فيضحكون** ويتبسم صلى الله عليه وسلم] وكان أحدهم ربما اضطجع على ظهره في المسجد من شدة الضحك.

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال [**رَدفتُ** رسولَ الله يوما -أي ركبت معه- فقال: هل معك مِن **شِعر** أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم. قال: هيه -أي أسمعني-، فأنشدتُه بيتا، فقال: هيه. ثم أنشدتُه بيتا. فقال: هيه. حتى أنشدتُه **مائة بيت**]، وقد كافأ كعبا بن مالك رضي الله عنه على قصيدته المشهورة **(بانت سعاد)** فكساه "بردته"، وقد اشترى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه هذه البردة من ولد كعب بعد موته وجعلها حلة ملوك المسلمين فكان الخلفاء يلبسونها في الأعياد والمناسبات إلى أن احتل المغول بغداد ونهبوها فأحرقوا البردة والله المستعان .

<u>وفي الختام</u>: إعلم أن هذه الأخبار منها ما هو ثابت مقطوع به، ومنها ما روي وأشتهر والله أعلم بصحته إلا أنه كاشف عن تصور العلماء لحقيقة "كمال الأنبياء" البشري الأمر الذي جعلهم يقبلون هذه الأخبار ويروونها بغير نكير ويثنون بها على هؤلاء السادات العظام الذين هم صفوة الله من خلقه وأمناءه على وحيه {والله أعلم حيث يجعل رسالته}.